اشتياق

محمد عبد الرازق مصطفي

اشتياق

محمد عبدالرازق مصطفي

تصميم الغلاف : عبير محمد

تدقيق لغوي: عبدالله أبو الوفا

رقم ايداع: 2017/28920

ترقيم دولي: 978-977-6594-34-3

دار فصلة للنشر والتوزيع

العزيزيه - منيا القمح - مصر

٠١٠٦٧٠٠٠٧٠١

fasla. pub@gmail. com

FB .Com/Fasla .Pub

جميع حقوق الطبع و النشر محفوظه

الطبعه الاولي يناير ٢٠١٨

جميع حقوق النشر محفوظه لدار فصلة للنشر و التوزيع
إن أي تصوير أو اعادة طباعه أو نشر بشكل ورقي أو الكتروني أو ترجمته أو تسجيله صوتيا بدون إذن كتابي مسبق من الدار يعرض صاحبه للمسائله القانونيه

اشتياق

محمد عبدالرازق مصطفي

فصلة
للنشر و التوزيع
Fasla Publishing & Distribution

مقدمة

في أواخر القرن الخامس عشــر الميلادي وبينما المسلمون تزدهر حضارتهم وتمتد فتوحاتهم شرقًا وغربًا، وتتسع خلافتهم في عصر بني أمية، كانت القارة العجوز تعيش أحلك فترات الجهل والتخلُّف، فتفشى الظلم وامتلك الحكَّام خيرات البلاد، بينما عاشت الشعوبُ في بؤسٍ شديد، واتخذ الحكَّام القصور والقلاع والحصون؛ بينما لم يجد عامة الشعب المأوى ولا السكن، بل وصل بهم الحال إلى أن يباعوا ويُشتَرَوا مع الأرض، اختفت كل معالم الحضارة والمدنية، وسيطرت الكنيسة على مقدرات البلاد، وتجلت الطبقية في أزهى صورها، بل هي طبقة واحدة تعيش، رجال الدين والحكام، وفيما عدا ذلك أموات، ربما كان ذلك مـــن الأسباب التي دفعت عدد من أهل تلك البلاد للجوء إلى الإسلام ومناصرة الفاتحين أملًا في إيجاد لديهم ما لم يجــدوا لدى غيرهم من أبناء جلدتهم، ووسط هذا الظلم والظلام تقبع في جنوب القارة الشمطاء، بقعة هي جنة الله في الأرض، شبه جزيرة إيبيريا.

ذلك المكان الجميل خلف البحر تلك الجنة التي روت المسلمين والغرب بحضارة فريدة، أصبحت بفضل المسلمين الأوائل جنة الله على الأرض من قصورها إلى جنائنها إلى معاهدها إلى علومها الدينية والدنيوية.

نعم إنها الأندلس.

التي دخلها المسلمون فاتحين ناشرين للرسالة المحمدية باعثين النور في أرجائها تحت إمرة الأمير موسى بن نصــير بقيادة البطل طارق بن زياد.

سميت الأندلس بهذا الاسم لكون أول من عمرها من المستعمرين كان الوندال أو الوندلوس باللاتينية والإسبانية القديمة ومنها اشتق اسم الأندلس.

في ظل الخلافة الأموية، أرسل موسى بن نصير القائد الشاب طارق بن زياد من طنـجة مع جـيش صغير من البربر والعرب يوم ٣٠ أبريل ٧١١، عبر المضيق الذي سمــي على اسمه، ثم استطاع الانتصار على القـــوط الغربيين وقتل

ملكهم لذريق في معركة وادي برباط في ١٩ يوليو ٧١١ الموافق ٢٨ رمضان ٩٢هـ، حيث استمرت الفتوحات واحد تلو الآخر إلى أن دانت معظم البلاد للفاتحين.

وظلت الأندلس بعد ذلك خاضعة للخلافة الأموية كإحدى الولايات الرئيسة، إلى أن سقطت الخلافة الأموية سنة ١٣٢هـ، واتجه العباسيون إلى استئصال الأمويين. وتمكن عبد الرحمن بن معاوية -عبد الرحمن الداخل- أن يفلت من قبضة العباسيين، فهرب إلى أخواله في الشمال الإفريقي، وأقام عندهم فترة من الزمن، ثم فكر في دخول الأندلس ليبتعد عن العباسيين، فراسل الأمويين في الأندلس.

وأسس الأمويون حضارة إسلامية قوية في مدن الأندلس المختلفة وهي أطول وأهم الفترات في تاريخ الأندلس حيث نقلوا إليها الحضارة والعلوم والأدب والفـنون والعمارة الإسلامية.

استمرت الأندلس في بهائها وتلألؤها إلى أن أعلن الوزير الحــزم بن جهور عام ٤٢٢ هـ/١٠٨٥ م سقوط الخلافـــة الأموية في الأندلس، مما دفع كل أميــر من أمراء الدولـة إلى الاستقلال بإمارته وتكوين دويــلات صغيرة ضعيفة مستقــلة، فيما يعرف بعصر ملوك الطوائف، وهو العصر الذي اقتبسـت منه أحداث تلك الرواية وفيه انقسمت الأندلس إلى ٢٢ دويلـة، إحدى هذه الولايات كانت شنتمرية الشرق التي تدور فيهـــا أحداث تلك الرواية، وهي أرض صغيرة منبسطة سهلة خضراء تحدها الهضاب من جميع الجهات، ويجري بأرضها نهر عـذب وعلى ضفتيه البساتين والأشجار، تقع في أقصى شرق أسبانيا وتزخر بالعديد من الثروات.

استمر التنازع والتناحر بين تلك الدويلات الصغــيرة وانقسمت الدويلات إلى دويلات أصغر فأصغر، بل وصــل الأمر ببعضهم للاستعانة بملوك الغـرب في حروبـــهم تلك، واستمر الحـال إلى أن حاول المرابطون - وهم محاربــون ملثمون أتوا من بعض قبائل المغرب العربي وسموا أنفسهم دولة الرباط والإصلاح- توحيد الأندلس مرة أخرى فيمــا يعرف بعصر المرابطين.

لم ينجح المرابطون في ذلك، فسرعان ما انهزمت دولتهم وتلتهم دولة

الموحدين، والتي أيضًا سرعان ما انهزمت هي الأخرى، إلى أن دانت الأندلس لحكم ملوك الكاثوليك الذين أنهوا الخلافة الإسلامية في الأندلس عام ١٤٩٢م، لتطوى بذلك صفحة من أعظم صفحات التاريخ الإسلامي، وتجف ينابيع العلم والحضارة وتنطفئ بذلك شمس مضيئة في تاريخ القارة العجوز، لكن تبقى الأندلس مدرسة العلم والحضارة في أوروبا، وفخر العرب والمسلمين على مر العصور.

كان يستلقي على أريكة مزركشة في بستان قصره تحت كرمة هائلة مطلة على نهر تاجــة(١)، كان مغمض العينين إلا قليلًا، يراقب غير مكترث أوراق الكرمة(٢) التي تهتز خجلًا حين يداعبها نسيم النهر العليل، ويختلج في مسمعه خرير النهــر مع زقزقات العصافير وهديل الحمائم وشدو البلابل، يستقبل شهيقًا عميقًا يستخلص منه عبق نسائم الأندلس المعطرة بالأمجـــاد والبطولات، ثم يطلق زفيرًا حارًا يتخلص فيه مـن همومه وأعبائه، يجول برأســه خواطر عابرة بشأن تاريخ أجداده وما سمعه منههم عن أمجاد الأندلس في الماضي، إلى أن انتهى بها الحال إلى تلك الدويلات الصغــيرة المتناحرة، ثــم يميل بخاطــره إلى مملكتــه وأحوالها وقصره وسكانه وأعدائــه وغاراتــهــم التي لا تخبو.

انتشله من بحر أفكاره صوت جاريته تنادي:

- سيدي، أن السادة الوزراء والأمراء وقادة الجــيوش قد حضروا في الموعد كما أمرت وينتظرون سموك.

- حسنًا أخبريهم أني قادم، ثم اذهبي وأعدي لي ماءً وطيبًا لأغتسل، وأرسلي من يحضر عبد الله ولدنا إلى المجلس.

في مجلس القصر جلس كبار رجال المملكة منتظرين ملكهم الموقر، ثم وقفــوا شاخصين حــين نادى الحاجب بقدوم الملك، أقبل مطلًا عليهم بهيئته العظيمــة، وبردتـــه الملكيــة المعطرة، ووجهه المستدير ولحيتــه البيضاء، ممسكًا بعصــاه ينحني ظهره قليلًا وقد نخر السن في هيئته وزادته الشيخوخة وقارًا.

دخل إلى المجلس وحيا الأمراء ثم تقدم نحو عرشه، وجلس وأشار إليهم فجلسوا، على يمينه جلس على عرش صغير صبي صغير لم يتعـد عمره الاثني عشر عامًا،

---

(١) نهر تاجة: هو أطول أنهار الأندلس، ينبع من جبال ابن الرزين في شنتمرية شرقًا ويمتد إلى البرتغال غربًا.

(٢) الكرمة: شجرة العنب وجمعها كروم.

فيه البراءة والإشراق ووجهـــه مستضاء كأنه البدر، وشعره الأسود الحريري ينحدر على جبهته من تحت تاج أنيق يزين رأسه الصغير.
تكلم الوزير ابن يحيى قائلًا:
- أطال الله عمـــر مولاي، قد جئنا كـــما أمـــرت والتحق بنا بعـــض مـــن ولاة شنتمـــرية(١) جاؤوك معزيينك يا سيدي في وفـاة أحـــد خواصـــك ورجالك المقربيـــن ومستشارك المرحوم بإذن الله الفتح بن هشام الكاتب، نعزيك يا سيدي ثانية، ونعزي أنفسنا في وفاته، متمنيين لك دوام الصحة والعافية.
أطرق الملك هنيهة واتكأ بذقنه على عصاه، ثم رفع رأسه وأطلق من صدره زفرة حارة قائلًا:
- هيه يا ابن هشام قد كنت نعم الأخ والصديق، أتعلمون أنه تربـى معي في هذا القصـــر منذ أن كان أبي يختص أباه الشاعـــــر والكاتب هشـــام بن أبي الحجاج، رحمة الله على الفتح ابن هشام، ما استشرناه في أمـر إلا وأشار، وما وكلنا إليه أمرًا إلا وأجاد، وما بادرنا إكرامـــه إلا وبادرنا حبًا وولاءً، عرضت عليه الوزارة مرارًا لكنه رفض، وقال أن حياته بين المداد والقراطيس، وإن ريشته بين أصابعـــه أقوى من السيف في أيدي الكثير، وكلٌ مسخـر لما خـــلق له، يا ابن يحيى، أغدق على بيته بالعطاء واجعل لزوجتـــه راتبًـــا ولأولاده كفالة من بيت المال، ولا تغلق دونهم بابًا، فحق علينا إكرام من أكرمونا، كم يبلغ عمر ولده الآن؟

---

(١) شنتمرية: هي إحدى مدن الأندلس القديمة، تقع في أقصى شرق أسبانيا، أسسها هذيل بن عبد الملك، كانت تسمى سانتا ماريا وحرفها العرب إلى شنتمرية، وتسمى حاليًا البرازين نسبة إلى بنى الرزين، الذين ينتمي إليهم مؤسسها هذيل بن عبد الملك، وتجري بها الأنهار العذبة وتنمو بها العديد من النباتات النادرة، وتزخر بالعديد من الثروات الطبيعية والحيوانية والنباتية، وهناك أيضًا شنتمرية الغرب التي أسسها بنو هارون، ومكانها الآن مدينة فارو في جنوب البرتغال.

- قد نيف على العشرين يا سيدي.
- ما أسرع الأيام يا ابن يحيى، بالأمس كان في حجرنا وليدٌ.
- هي الأيام تدور يا سيدي.
- وما أسرع دورانها.
- سنة الله في خلقه يا سيدي.
- أجل يا ابن يحيى، أرسل إليه ليتلقى عزاء والده من رجال المملكة.
- أمرك يا سيدي.

ساد الصمت قليلًا وأخذ الملك يجول بعينيه في أرجاء المجلس، يقلب في الوجوه، ويقرأ العيون، ويستشف ما في القلوب، حتى ساد القلق بين الحضور، ثم استطرد قائلًا:

- رجالي الأوفياء، تعلمون أني أثق في رأيكم، وآخذ بمشورتكم، فأنتم أعمدة دولتي وركنها المتين، ودرعها الواقي وسيفها البتار، أخي الحافظ بن هذيل قائد الجيوش، وصهري أبو بكر بن يحيى وزير دولتنا، وولده الوليد ابن أختي قائد العسس(١)، وابن فضيل قاضي القضاة، وابن مدين صاحب الخراج، وأمراء شنتمرية وولاتنا في كل ذراع من أرضنا المباركة، تعلمون أنا نملك أرضًا من جنان الله في أرضه، هي سهل خصيب يكثر به الماء، ويفيض منه الخير، سماها أجدادنا السهلة لانبساطـــها وخصوبة أرضها وكثرة نبتها، ولعله بلغ إليكم ما يدور حولنا من فتن وحروب تقتلع الأخضر واليابس، فصارت المالك حولنا دمار، وتعلمون أني ما فتئت أن نأيت بملــكي عن كل دمار، حـتى صرنا آمنين مطمئنين، وصارت مملكتنا درة وسط هذا الخراب، فصارت مطمعًا للكثير منهم، لذا فقد أرسلت إليكم اليوم مستشيرًا فيما بلغ إلينا من عيوننا من نية المنذر التجيبي صاحب سرقسطة(٢) في الإغارة على مملكتنا المباركة، فاعلموا ألا وقت للنوم ولا

---

(١) العسس: رجال الشرطة يطوفون بالليل يحرسون الناس.

(٢) سرقسطة: إحدى دويلات الأندلس التي تكونت في عصر ملوك الطوائف، وحكمها بنو تجيب ومن بعدهم بنو هود، وازدهرت بالعلماء والكتاب، وكانت من أقوى دويلات الأندلس.

نية للخنوع، وأن سنين الدأب قد مضت وأتت السنين العجاف، فليوقظ كل منا همته وليشد مأزره ويستعد للذود عن ماله وأهله.
قال الوزير ابن يحيى:
- ونحن رجالك الأوفياء يا سيدي، وجاهزون لرد أي عدوان.
- وهذا ظني فيكم يا ابن يحيى.
ثم نظر للحافظ وأكمل قائلًا:
- يا حافظ إن قوة الجيوش هي ما تصنع الأمجاد؛ فسلح جيشك واطلب ما شئت من أموال، ولا تدع ذَكرًا قادرًا على حمل سلاح إلا جندته، واعلم يا وليد أن قوة البلاد وهيبتها لا تتأتى إلا من أمنها الداخـــلي، ولا يتأتى ذلك إلا بقوة العسس والشرطة، فدرب أفرادك وكثف جهدهم؛ ليكونوا درعنا في الداخل، وزكي منهم أشجعهم ليكونوا لنا مـــددًا لتتقدمهم بنفسك إذا اقتضت الحاجــة، فثـقتى بك وبرجالك كبيرة.
يا حافظ عليك بإحصاء الجيوش وعدتها وعتادها ومؤنها، وكم من المال تحتاج وجهز جيشك في ثلاثة أيام وأرسل رسالة إلى أبي حمزة المراكشي والي الغرب في تيروال(١) أن الحرب قد دقت طبولها، وأن المنذر التجيبي على أبواب المدينة، فإما غافلنا أو بادرناه، ومره ألا يدخل من غرب المملكة داخل ولا يخرج منها خارج، ويضبط كل من يشك في هويته أو ولائه، وأن يحذر الخيانة ويترقب وصولنا إليه.
- أمرك يا سيدي، لكن من انتخبت كاتبًا خلفًا لابن هشام الكاتب حتى يكتب الرسالة.
أطرق الملك ثم قال:
- اترك لي الأمر.
لم يمض من الوقت الكثير حتى نادى الحاجب:
- محمد بن الفتح بن هشام يستأذن مولاي بالدخول.

---

(١) تيروال: إحدى مدن شرق الأندلس، وتقع في غرب شنتمرية على حدود سرقسط.

أذن له الملك فدخل إلى المجلس شاب في ريعان شبابه، حسن الوجه مشرئب العنق، لامع العينين، مهندم الثياب، يبدو على وجهه أمارات الذكاء ونقاء السريرة، دخل إلى المجلس وتقدم نحــو الملك والعيون تتعقب خــطاه، ثم حيا الملك وحياه الملك، ثم أمره الملك أن يجلس إلى جواره وعرفه بالحضور، وأبلغه عزاءهم إياه في وفاة والده الكاتب، فامتن ابن الكاتب إليهم وشكر لهم سعيهم.
نادى الحاجب أن الطعام جاهز فقام الملك وقاموا إلى مأدبة عظيمة فيها من كل الخيرات.
جلس الملك وأجلس عن يمينه وزيره ابن يحيى، وعن يساره ابن الكاتب، ثم قال:
- كيف حال والدتك وإخوتك يا ابن الكاتب؟
- نحمد الله يا سيدي في أحسن حال، بفضل الله تعالى وكرم عطائك، شاكرين لمولاي الملك حسن رعايته لأبينا في مرضه.
- هذا أقل ما نكافئ به رجلًا من أخلص رجالنا، فقد كان أبوك أعز صديق لي، وقد نشأ معي في هذا القصر، وكان يؤثر العلم والكتابة على المُلك والسلطان، ولولا ذلك لوليته منصبًا أو منحته إمارة.
- لم يكن أبي -رحمه الله- رجل حرب، لكنه عمد أن يعلمني الحرب والقتال؛ فأرسلني إلى قرطبة، قضيت بها معظم طفولتي أدرس العلم وأتعلم القتال.
- أجل لقد سمعت عنك من والدك لكني ما رأيتك يومًا.
- نشأت في قرطبة، وأقمت عند أخوالي، ولم أعد إلى شنتمرية إلا لأجل مرض أبي.
استرحم الملك على الكاتب واستطرد يحكي لمحمد عن أبيه، وكيف كان ولاؤه وحسن خلقه، وعن جده الذي كان من خواص أبيه هذيل بن عبد الملك، ثم سأله عن مهنته ومم يكسب قوت يومه، فأجاب ابن الكاتب:
- أعمل نساخًا يا سيدي، أنسخ الكتب وأبيعها في السوق.
ضحك الملك قائلًا:
- ويحكم يا آل الحجاج تتوارثون الكتابة كما نتوارث نحن الملك.
ضحك الحضور وضحك ابن الكاتب وقال:

- هذا ما وجدنا عليه آباءنا.

انتهوا من الطعام والشراب واستأذنوا بالانصراف كل إلى عمله، فأذن لهم الملك ثم نادى على ابن الكاتب وقال:

- انتظر يا ابن الكاتب.

- أمر سيدي.

أما تريد أن تتسلم إرث أبيك؟

تبسم ابن الكاتب وقال:

- وما إرث أبي يا سيدي أعزك الله، فرحمه الله كان زاهدًا في المال، نحمد الله أن ترك لنا ما هو خير وأبقى، السيرة الطيبة وحسن الخلق.

- وغرفة الكتب يا محمد، فما كل ما يورَّث المال يا ابن الكاتب، فأبوك قد ورثك علمًا إلى جانب السيرة الطيبة وحسن الخلق، اذهب لتتسلم عملك في غرفة الكتب وأقم فيها ولا تغادر إلا بأمر منا، فحق علينا أن يصير ابن الكاتب لنا كاتبًا،

وأول مهمة لك هي رسالة إلى والي تيروال.

في شرفتها المطلة على النهر جلست فتاة جميلة تبدو ككوكب متلألئ يبعث الأنور ويبهر الأنظار، كالقمر في وضاءته وبديعه، يفيض الحسن من وجنتيها ويتدفق الجمال في خديها ويثور السحر من عينيها، بيضاء الجبين حمراء الخدين حوراء العينين لمياء(١) الشفتين، رشوف(٢) الفم فرعاء الشعر، يتدلى شعرها الكستنائي على كتفيها وينسدل على ظهرها كأنه سترة حريرية صنعت بماء الذهب، رقيقة المشاعر قليلة الكلام خفيضة الصوت باسمة الوجه، تأسر قلب كل من يراها وتذهب عقل كل من يسمع بحسنها. وعلى يمينها ويسارها وصيفتيها الأثيرتين فجر وسُليمي يمشطان شعرها ويحادثانها،ثم انتبهن إلى صوت يقرع الباب بلطف وينادي:

---

(١) شفة لمياء: أي غضة رقيقة الجلد.

(٢) فم رشوف: طيب وعذب الريق.

- أستأذن ابنتي الجميلة في الدخول.
سمعت صوت أبيها فتهلل وجهها وانفرجت أساريرها وقالت:
- تفضل يا أبي.
- السلام على أميرة شنتمرية.
السلام علي ولي عهد شنتمرية وقائد جندها، صبحك الله بكل خير.
أشارت للجاريتين بالخروج فخرجتا.
- جئت أودع صغيرتي؛ فربما أنشغل عنها في قادم الأيام.
- عسي أن يكون خير يا أبي.
- خيرًا يا ابنتي إن شاء الله، فقد أرسل إلينا عمك الملك وجمع كل أمراء المملكة وولاتها، فيبدو أن هناك خطر يهدد أرضنا، وعلينا أن نستنهض الهمم لحماية كل شبر فيها.
وبصفتي قائد الجيش فقد يشغلني ذلك الأمر عنك لعدة أيام؛ فجئت مودعًا صغيرتي الحسناء، وموصيًا إياها بأشقائها الصغار وزوجات أبيها.
تبسمت وقالت:
- اطمئن يا أبتِ فبنت الحافظ للعهد أحفظ.
قهقه الحافظ وعلت ضحكته قائلًا:
- والله يا صغيرتي لو كان الأمر بيدي لاستأذنت عمك أن يقيلني مما يوكله إليَّ من أمور الحكم؛ فأجلس أحاكيك ليل نهار لا أزهد من سرعة بديهتك وخفة ظلك.
طبعت على خده قبلة رقيقة قائلة:
- كيف يقيلك عمي الملك؟ فهل هناك من هو أجدر بإدارة شؤون الحكم وقيادة الجيش من فارس فرسان الأندلس وأمير شبابها الحافظ بن هذيل.
ضحك الحافظ قائلًا:
- يا لك من فتاة عروب!(١)
حلاوة اللسان وحسن البيان ورثتها منكم يا آل هذيل.
علت ضحكاته مرة أخرى ومال على رأسها وطبع قبلة رقيقة وقال:

- الحديث معك سيأخذني وحلاوة المكوث إلى جوارك ستنسيني ما وكلني الملك إليه، لا بد أن أذهب لأباشر عملي وإلا سيقيلني الملك فعلًا.
قالت مبتسمة:
- في حفظ الله يا أبي.
- في حفظ الله يا بنيتي، وفكري فيما حدثتك فيه بالأمس، وحدثتك فيه عمتك صفية.
تغير وجهها وأطرقت ثم سكتت برهة وزفرت على أثرها زفرة حارة ثم قالت:
- إن شاء الله يا أبي.
في أحد أجنحة القصر الفاخرة تقيم صفية شقيقة الملك مع زوجها الوزير أبي بكر بن يحيى، ويقيم أيضًا ولدها الوليد مع زوجته وأبنائه.
كانت جالسة تنتظر في شغف لتعرف سر اجتماع الملك برجاله، دخل زوجها وولدها فبادرتهما بالسؤال:
- ماذا كان يريد أخي؟ ولم جمع الرجال هكذا؟
رد الوزير:
- إنها الحرب يا أم الوليد، سنخرج في غضون ثلاثة أيام إلى تيروال في غرب المملكة، فالمنذر التجيبي صاحب سرقسطة على الأبواب، وعلينا أن نذود عن أرضنا ولو كلفنا ذلك دماءنا.
- عن أي أرض تتكلم يا أبا الوليد؟
- أرضنا تلك!
- تقصد أرض الحاكـــم والحافظ وأولادهما من بعدهما، فما نحن إلا ضيوف في القصـــر والأرض، نقضي عمرنا في خدمة هذا وذاك، نخوض الحرب تلو الحرب نوسع أطراف ملكهم ونوطد أركان دولتهم، ويصب الخير في بطونهم لا ينالنا منه إلا ما ينعم به علينا الحـاكم وزوجته التي كانت يومًا مـا جـــارية لي،

---

(١) الفتاة العروب: هي التي تجيد الغزل وتحسن الكلام، وجمعها عُرب وفي القرآن يقول تعالى في وصف الحور العين "عربًا أترابًا".

أتــدري يا ابن يحــيى ما الذي سيحدث إن مات الحاكم وترك ملكه هذا؟ سيصير ولده الصغير ملكًا عليك وعلى أولادك، وتصير أمه التي كانت جاريتي سيدة لي.

قال ابن يحيى في غضب:

- لن أنسى لأخيك هذا أنه رفض أن يختارني وزيرًا، وفضل علي كاتبه تارة وتارة أخرى أحد أمرائه، ولولا وساطتك لي عنده وإلحاحك عليه؛ لكنت خارج القصر أبيع وأشتري في السوق.

- وماذا فعلت أنت منذ أن أدخلتك إلى كنف أخي وصرت وزيره الأول؟ بأي شيء كافأك وبأي ثمن قدر خدمتك وولدك له؟ وماذا جنيت من وراءه؟ لا شيء يا وزيره الأمين.

ثم التفتت إلى ابنها الوليد وقالت:

وأنت يا قائد شرطته، كم من الفتن أخمدت وكم من المؤامرات كشفت وكم من المعارضين والخارجين قتلت؟ ماذا قدم لك وأنت ابن أخته وذراعه المتين ودرعه الواقي وحامي أمنه؟ وبم كافأك؟ الأيام تمر والعمر يتقدم به وولده يكبر ومُلك أبي وجدي ينسحب شيئًا فشيئًا من تحت قدمي وقدم ولدي ويذهب إلى ابن الجارية.

- وما العمل إذن يا صفية؟

- انتقال المُلك إلينا سيكون عن طريق أخي الحافظ.

قال الوليد:

- فهمتك يا أماه، تريدين أن أتزوج ابنة خالي الحافظ على أمل أن ينتقل المُلك إليه.

- أجل ستتزوج من رقية ابنة خالك وسينتقل المُلك إليه لا محالة.

- كنتُ فكرت في الأمر ذاته ولكن هل يقبل خالي الحافظ أن تكون ابنته زوجة ثانية لي؟

- كلنا يعلم قربك منه وحبه لك، فهو لا يرفض لك طلبًا وقد فاتحته في الأمر فلم يبد رفضًا، الرفض إن أتى فسيكون من خالك الحاكم فعليَّ إقناعه، كما أنك

ستطلِّق زوجتك يا أبله، من أجل عيون أميرة شنتمرية.
- كم صارت جميلة يا أمي! لا أدري متى كبرت تلك الحسناء الصغيرة، ولكنها عنيدة ودائمًا ما تتجنبني وتقل من الحديث معي.
- إنه دلال العذارى يا ولدي، واطمئن فقد حدثتها هي الأخرى في الأمر فلم تبد اعتراضًا، فهل تجد أفضل من ابن عمتها أمير فتيان شنتمرية وقائد شرطتها؟ لم يتبق لي إلا أن أحدث أخي الحاكم في الأمر ونعلن الزفاف بعد عودتكم من الحرب منتصرين.
أمسك بقبضة الباب وفتحه شيئًا فشيئًا كمن يدخل إلى عالم آخر، باب خشبي صغير يفصل بين عالم صاخب يملؤه صليل السيوف وقعقعات الحروب وضجيج الأسواق ووقع سنابك الخيل، يتلون بلون الدماء وتفوح منه رائحة الغدر والخيانة، وعالم هادئ حالم لا تسمع منه إلا صوت صرير الأقلام تغازل صفحات الكتب ولا تشتم منه إلا رائحه المداد والورق والرقاع المدبوغة، تسافر فيه عبر الزمان وتتنقل بين االبلدان، فما من رقعة ولا قرطاس إلا ويحكي تاريخًا لبلد أو يرسم خارطة لأخرى، أو ينشر علمًا لعالم أو يروي شعرًا لشاعر، أو يسرد ترجمة عن ثقافة أمة أو يحمل رسالة من ملك، عالم كامل متكامل مرصوص على أرفف تلك الغرفة الصغيرة، عالم نسخه أبوه وجده وأفنيا عمريهما في تدوينه، في كل ركن من أركان الغرفة يرى طيف أبيه وجده ومع كل نسمة يشتم رائحتيهما.
أخذ يتنقل بين الرفوف وينفض التراب عن تلك الكتب الثمينة، فهذا الموطأ لابن مالك وآخر عن الخراج لأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم، وغيره للأصمعي والجاحظ والأصفهاني وابن العميد واليعقوبي، وأخرى مترجمة عن الغرب، ثم جلس إلى منضدته الصغيرة وأسند ظهره إلى الجدار، وأخذ شهيقًا عميقًا وقال: "على بركة الله أبدأ"، ثم غمس ريشته في قارورة المداد، وبدأ في كتابة رسالة الملك إلى والي غرب شنتمرية في تيروال.
انتهى من كتابته وبدأ يطالع بعضًا من الكتب غير آبه للوقت حتى أقبل الليل، وبينما هو مستغرق في قراءته إذ قطع انتباهه صوت قادم من ناحية شرفته، ساده القلق والاضطراب، ثم اتجه في حذر ناحية النافذة الخشبية وأخذ ينظر

من بين فتحاتها الصغيرة، فرأى خيال شخص يتسلل فوق الشجرة المطلة على النافذة، زاد قلقه ثم نظر حوله فرأى لوحًا خشبيًا في أحد أركان الغرفة، فالتقطه وفتح النافذة فجأة وضرب المتسلل ضربة قوية أسقطته أرضًا، وأخذ ينادي:

- أمسكوا هذا اللص، أمسكوا هذا اللص، يا حراس هناك لص في البستان.

أسرع الحراس ناحية اللص لما سممعوا الصوت، وأوسعوه ضربًا وهو ملقى على وجهه، نادى ابن الكاتب من النافذة لا تتركوه حتى آتي إليكم، ثم انطلق مسرعًا من الباب الخلفي ناحية البستان، فما أن قدم حتى وقف مستغربًا مستنكرًا ما يحدث، وقال للحراس: "ويحكم! أقول لكم أمسكوا اللص، ثم آتي فأراكم تجلسونه وتسقونه الماء وتنفضون الغبار عن ملابسه.

قال أحد الحرس:

على رسلك أيها الكاتب الجديد فهذا ليس لصًا، إنه زمزم البستاني كان يقلم الأشجار كما أمره الملك.

شعر ابن الكاتب بحرج شديد أمام ضحكات الحراس ونظرات الغلام الملقى على الأرض.

قال الغلام وهو يحاول النهوض ممسكًا ظهره ومستندًا على الحراس وهم يساعدونه في النهوض:

- من منا اللص يا هذا؟ فأنا أعمل هنا منذ ولادتي، أما أنت فهذه أول مرة أراك.

- عذرًا أيها البستاني، فأنا الكاتب الجديد، وأول يوم لي هنا ولا أعرف أحدًا.

- آه، أنت ابن الكاتب الفتح بن هشام إذن!، ولم لست مثل أبيك رحمه الله؟! كان حسن الخلق ذكيًا، لا مثلك أبلهًا، أيها الغبي أي لص هذا الذي يقوى على مغافلة كل هؤلاء الحراس؟ أي لص هذا الذي تقوده جرأته على سرقة قصر الملك يا أبله؟

- أعتذر لك مرة أخرى يا زمزم، فقد كنت نسيت وقتها أني في قصر الملك.

- نعم! نسيت! ألم أقل لك أنك أبله، ثم ماذا أفعل باعتذارك هذا وقد تكسرت عظامي الرشيقة واتسخت ثيابي الأنيقة وضاعت هيبتي.

نظر ابن الكاتب مستنكرًا وقال:

- نعوضك عما أخطأنا.
- وكيف يا فصيح؟
قال ابن الكاتب مبتسمًا:
- العظام فسنداويها، والثياب نستبدلك خيرًا منها، أما الهيبة فلا حيلة لنا فيها فهي لا تباع ولا تشترى.
نظر إليه في غضب شديد وقال:
- إذن أقتص منك في هيبتك.
- حسنًا تعال معي أولًا لأداويك، ثم اقتص كيفما تشاء.
أمسك ابن الكاتب بيديه مساعدًا إياه في المشي.
- اذهب بي إلى غرفتي أيها الكاتب الأبله.
- اصمت وإلا ناديت الحراس ثانيةً.
- أنا لص يا هذا!! والله ما رأيت أغبى منك.
في غرفة البستاني جلس ابن الكاتب يطبب جراح زمزم، فقد كان على دراية ببعض أمور الطب من كثرة قرائته فيها ونسخه لكتبها، جلس زمزم البستاني تحت يديه يتأوه تارة ويشتـمه أخرى، وابن الكاتب يضحك ويمازحه، وكان زمزم غلامًا أســود اللون، نحيل الجسم، متوسط الطول، واسع العينين، أفطس الأنف، حليق الشعر، بشوش الوجه، خفيف الظل، مفعمًا بالنشاط، كثير المزاح مرحًا محبوبًا من كل من في القصر، وقد فطن ابن الكاتب إلى نقاء سريرته وصفاء قلبه؛ فاطمأن إليه وأسف على فعلته وبدأ يحادثه قائلًا:
- أخبرني يا زمزم منذ متى وأنت تعمل هنا؟
- لقد قدمت إلى هنا مع أمي فقد اشتراها الملك منذ أن كنت رضـــيعًا على كتفــها، وتربيت هنا، وكانوا ينادوني يا حبشي، وفي ذات مرة عندما كنت صغيرًا، كنت أروي البستان، فحفرت حفرة وجعلتها بئرًا عميقة وأوصلتها بالنهر؛ فامتلأت ماء فصرت آخذ منها وأروي الأشجار بدلًا من أن أذهب إلى النهر، فرآني الملك فضحك وقال:
بئر زمزم تلك؟!

فصار كل من في القصر يطلقون على بئري الصغير بئر زمزم؛ حتى أسموني زمزمًا
ضحك محمد وقال:
- وأين والدتك يا زمزم؟
- إنها هنا في القصر تعمل في كنف السيدة صفية شقيقة الملك، وهي كل من لي في هذه الدنيا.
- وهل رأيت أبي؟
- السيد الفتح بن هشام رحمه الله؟ نعم كنت أراه كثيرًا، فقد كان يحبني وكثيرًا ما كان يداعبني قائلًا: "زمزم لما شرب له".
ضحك ابن الكاتب قائلًا:
- الآن وقد داوينا جراحك فقد وفينا ديننا الأول، سأذهب لأرسل من يشتري لك ثوبًا جديدًا، وبهذا أكون قد وفيت ديني الثاني.
- وماذا عن الثالث؟
- انهض أولًا، ثم افعل بى ما تشاء.
- والله سوف أربطك إلى جذع شجرة وآمر الحراس أن يضربوك وأذهب لأملأ الماء من النهر لأروي البستان ولا يتركونك حتى يجف ماء النهر في يدي.
ضحك ابن الكاتب وقال:
- أيها الحراس، هناك لص في غرفة البستاني تعالوا بسرعة.
- لا، لا بالله عليك يا ابن الكاتب، ما عاد جسدي يطيق غباء الحراس.
قهقه ابن الكاتب وودع زمزم وانصرف.
استأذن الحاجب الملك في دخول الملكة صفية شقيقة الملك، فأذن الملك بالدخول.
- السلام على ملك البلاد وسلطان درة أرض الأندلس.
- السلام عليك يا أم الوليد، تفضلي بالجلوس وأخبريني كيف حالك؟
- في أحسن حال ما دامت سلامتك وصحتك يا ملك البلاد.
- وكيف حال أحفادك أبناء الوليد؟
- بخير، مع الجارية يلعبون في حديقة القصر.
- أطال الله عمرك يا أختاه حتى ترين أحفادهم.

- وأطال عمرك مولانا الملك.
- العمر يجري يا أم الوليد، والخير فيكم وفي ذرياتكم من بعدي.
- لا تقل ذلك يا أخي، أطال الله عمر ولدك عبد الله ولي عهد البلاد.
- عبد الله ما زال صغيرًا يا أختاه، فقد حرمني الله من الولد، ثم منحني إياه بعد أن بلغت من الكبر عتيًا، لذا شجعي ولدك الوليد على إنجاب الكثير من الولد؛ ليكونوا عمادًا له في شيخوخته وورثة له في ملكه.
- وهذا ما جئتك فيه يا أخي.
- فيم يا صفية؟!
- أريد أن أزوج ولدي الوليد.
ضحك الملك وقهقه عاليًا:
- وهل ابنك في حاجة إلى زواج؟ فأم أولاده خير النساء وأجملهن، غير أن ملك يمينه الكثيرات ممن يبرع حسنهن ويتألق جمالهن.
- إنه يطمح فيما هو خير.
- وهل هناك من هي خير من ابنة القاضي الحسن بن يعقوب التاجاني -رحمه الله-قاضي القضاة الأسبق؟
- أجل يا مولاي.
- ومن تكون؟
- حوراء الأندلس وأميرة فتيات المملكة رقية ابنة أخينا الحافظ.
أطرق الملك يفكر فيما قالته أخته ثم قال:
- وهل ترضين لابنة أخيك الأميرة أن تكون زوجة ثانية؟
- إن شئت طلقها يا مولاي.
- وما ذنب زوجته وأولاده؟
- وما ذنب ابنة أخينا أن تذهب لمن هو دونها، أترضى أنت يا ملك البلاد أن تزوج سليلة الملوك لأحد مواليك؟ أترضى أن يطمع فينا القاصي والداني؟ أترضى أن تزوجها لأحد ملوك الأندلس المجاورين، ممن لا نأمن غدرهم ولا غدر الفرنج بهم.

- بل نزوجها أحد أمراء مملكتنا، كما زوجناك من قبل لابن وزير أبينا.
- وها هو الوليد ابن وزيرك وابن أختك، يقف على بابك طالبًا منك زهرة فتيات الأندلس ابنة خاله، فمن ترى أحق برقية من ابن عمتها أميرك المخلص وقائد شرطتك وخادمك الأمين؟
أخذ يحك ذقنه بيده وأطال التفكير ثم قال:
- حسنًا يا صفية، اتركي الأمر لحين العودة من المعركة.
- يا أخي دعنا نمهد للأمر ونسعى للخير، وحين يتم القبول ويتآلف القلبان، نقيم الأفراح عند العودة منتصرين إن شاء الله، فتكثر الأفراح في قصرنا المبارك.
أطرق وأطال النظر للأرض يفكر ثم قال:
- إذن دعيني للصباح وسأحسم الأمر بإذن الله.
في جناحه الملكي، جلس الوزير ابن يحيى وولده الوليد في قلق منتظرين قدوم أم الوليد ببشرى مباركة الملك.
قال الوليد في قلق:
- لا أدري يا أبي لم تأخرت هكذا.
تبسم ابن يحيى قائلًا:
- لا تقلق يا ولدي، فأمك لديها من سحر الكلام ما يذهب لب أعقل العقلاء حتى ولو كان خالك الملك.
- وهل يوافق الملك دون أخذ رأي رقية؟
- لو بارك خالك الملك الزواج؛ فلن تستطيع رقية ولا أبوها عصيانه ولا مخالفة أمره.
- وهل تظنه يوافق؟
- هذا يتوقف على أمك، إن استطاعت أن تسحر الملك وتقنعه بحلو حديثها وحسن إطرائها فسنبارك الزواج وربما اليوم.
ضحك الوزير وضحك ابنه، ثم ساد الوجوم والترقب حين دخلت صفية فنهض الوليد مستقبلًا أمه.
- بشريني يا أماه، ما رد خالي الحاكم؟

- سيرد في الغد، لا بد أنه سيستشير الحافظ وابنته.
- ترى ماذا سيكون رد خالي الحافظ؟
- لقد قمت بدوري وفاتحته في الأمر، قم أنت بدورك وأقنعه وأقنع ابنته، ولا أظنه سيبخل عليك بجوهرته الغالية، ولا أظنها سترفض سيد شباب الأندلس.
أطرق الوليد وبعد تفكير قال بلهجة يملؤها التحدي:
- حسنًا يا أماه سأقوم بدوري.
جلس في شرفة قصره المطلة على النهر، يستمتع بالشمس المشرقة ويستنشق نسيم الصباح العليل، ويحتسي شرابه الدافئ ويراقب الطيور التي تتهادى لترتوي من ماء النهر العذب الرقراق، ويفكر في مصير البلاد ومعاركه القادمة، ثم قطع تفكيره صوت الحاجب ينادي بدخول أمير البلاد الحافظ بن هذيل.
- السلام على مولاي الملك.
- وعليك السلام يا حافظ، اجلس، كيف حالك وحال أبنائك؟
- بخير بفضل الله وحسن رعايتك يا ملك البلاد.
- أخبرني ماذا أنجزت بالأمس في أمر الجيش؟
- اجتمعت بقادة الجند وأمرتهم بالعمل الجاد لتدريب الجنود وإعدادهم للحرب،
واجتمعت بابن مدين صاحب الخراج وأحصينا ما نحتاج من أموال ومؤن، وبالغد سننتهي من إعداد كل ما يحتاجه الجيش، واجتمعت بالوليد لإحصاء من يجب عليهم القتال من رعايا المملكة وعامتهم لتجنيدهم وضمهم للجيش؛ كي يكونوا زخرًا لنا وقوة احتياطية إن اقتضت الحاجة.
- أحسنت يا أخي، فكم تعلم ثقتي فيك وفي قيادتك للجيش، ولولا صحبة السوء التي تتخذها ومجالس اللهو التي لا تكف عنها، لسلمتك مقاليد الحكم وقضيت ما تبقى لي من أيام خالي الفكر متفرغًا للذكر، بعيدًا عن أعباء الحكم وعوائق المُلك.
- أطال الله عمرك يا ملك البلاد، فلن تنعم البلاد بمثل عدلك، ولن تهنأ بمثل حكمتك.

- العدل والحكمة ورثناهم عن أهلينا فلا تضيعهما يا حافظ.
- حسنًا سأكون عند حسن ظنك.
- بالغد -إن شاء الله- سوف أتابع ما أنجزت مما وُكل إليك.
- كل الأمور تسير حسب أوامرك يا ملك شنتمرية.
استأذنت الجارية للدخول بالشراب وقدمته للحافظ،
ارتشف رشفة من شرابه الدافئ واستطرد قائلًا:
- أعلم يا حافظ مدى صداقتك وحبك لابن أختك الوليد، فمنذ أن كنتما صغارًا ويشك الرائي أنكما خال وابن أخته، ربما لتقاربكما سنًا أو لترابطكما فكرًا، فخمس سنوات بينكما كفيلة أن تجعل منكما صديقين حميمين، وما تزالان صديـقين لا تفترقان، وقد بلغني من أختك أن ابنها الوليد يبغي الزواج من ابنتك رقية، وقد أجَّلت الرد لحين سماع ردك.
- لقد حدثني الوليد في الأمر ولا أرى في الأمر عائقًا، فمن أصاهر خيرًا من أختي وابنها! فتتزوج ابنتي في كنفي وتبقى في قصرنا وتحت أعيننا.
اعتدل الملك في جلسته ثم وقف وأدار ظهره لأخيه متكئًا على عصاه مطيلًا النظر من شرفته للنهر، والحافظ جالس يتابع الملك في ترقب شديد.
- أراك مرحبًا بالأمر يا حافظ، وكأنك فكرت وقررت.
تلجلج الحافظ وقال:
- اا، اا،الأمر إليك يا مولاي والقرار قرارك.
- يا حافظ أنت شقيقنا الأصغر، وإني أكبرك بزهاء الثلاثين عامًا، تعلمت من أمور الحياة ما لم تتعلم، واطلعت على خبايا النفوس فرأيت ما لم تر، تريث يا أخي ولا تكلف ابنتك ما لا تطيق.
- وهل في الوليد عيب أيها الملك؟ وإن كان كذلك فِلم تصطفيه وتتخذه من خواصك وتجعله قائدًا لشرطتك؟
- ليس في الوليد عيب يا حافظ، فثقتي فيه لا تختلف عن ثقتي فيك، وحبي له لا يقل عن حبي لك، لكن ابنتك ما تزال صغيرة قليلة الخبرة لا تتحمل أعباء الزواج الآن، والوليد يكبرها بأكثر من خمسة عشر عامًا غير أنه متزوج، أتريد أن

تدخل ابنتنا على زوجة أخرى؟
- يا أخي تدخل على أخرى خير من أن تدخل عليها أخرى، أتنسى يا مولاى أنك تزوجت ابنة عمنا ولم ترزق منها بأبناء، ثم تزوجت ابنة ملك قشتالة ولم يشأ الله أيضًا أن تنجب،ثم تزوجت عليهما أم ولدك عبد الله وكانت ملك يمينك وكنت تكبرها بأربعين عامًا، فالسن ليس عائقًا في الزواج، ثم إن ابنتي لم تعد صغيرة، لقد أتمت عامها الثامن عشر.
- أفهم من كلامك أنك موافق على هذا الزواج.
- تأتي موافقتي بعد مباركتك يا مولاي.
- ورأي ابنتك؟
- حدثتها في الأمر ولم تمانع.
- يا حافظ، لا تدع صداقتك بالوليد تطغى على حبك لابنتك.
- إذن حدثها في الأمر، وأعدك إن رفضت فلن أسمح بإتمام الأمر أبدًا.
- حسنًا يا حافظ لك ما تريد، انته من شرابك وباشر عملك، وأبلغني بكل ما هو جديد.
- أمر مولاي الملك.
تسلل شعاع طفيف من ضوء الشمس الهادئ من نافذة الغرفة، واختلط بنسمات هواء دافئة، وداعب وجهه المستلقي على فراش ناعم جميل، فاستيقظ فاتحًا جفنيه، وأطال النظر حوله مستغربًا غرفته الجديدة القابعة في أحد زوايا القصر الملكي والملاصقة لمكتبة القصر، ثم جال بعينيه في أرجاء الغرفة الصغيرة وشرد بذهنه متذكرًا طفولته حينما كان يرافق أباه في تلك الغرفة ويساعده في نسخ الكتب، فكان يقرأ ويملي على أبيه؛ حتى جرت القراءة والكتابة والنسخ مجرى الدم في عروقه، نهض من فراشه وفتح الباب الذي يفصل بين غرفة المبيت وغرفة الكتب، ثم تجول بين أرفف الكتب ووقف محتارًا أمام هذا الكم الهائل من العلوم والفنون، قال متـمـتمًا:
- حفظ الله الحاكم بن هذيل، ما رأيت أحرص على العلم والأدب منه، لم تشغله أمور الملك ومشقة الحكم عن الكتب وجمعها ونسخها.

ثم احتار أي مطية يمتطيها ويسافر بها ليخترق حدود الزمان والمكان، فبحث يمينًا ويسارًا إلى أن وقعت يده على كتاب فتوح البلدان للبلاذري.(١)
استأذنه الحاجب بدخول الأميرة رقية فأذن لها؛ فدخلت إلى شرفته بوجهها الصبوح وبسمتها الهادئة المرتسمة على شفتيها الرقيقتين تنسدل خلفها أطراف ثوبها الحريري المزركش بالجواهر، ويداعب النسيم العليل خصلات شعرها الذهبي فتزداد تألقًا وجمالًا، قالت بصوت هادئ يملؤه الحياء والخجل:
- السلام على ملك البلاد.
- السلام عليك يا أميرتي الجميلة، كيف حالك يا أميرة أميرات الأندلس؟
- بخير يا سيد ملوك الأندلس.
- تعلمين يا صغيرتي كم أحبك وأعتبرك ابنتي لا ابنة أخي، فكم تمنيت لو رزقني الله بفتاة في جمالك وحسن خلقك وفصاحة لسانك ورجاحة عقلك.
احمر وجهها خجلًا وأطرقت بوجهها للأرض حياء.
ثم نظر إليها مبتسمًا وقال:
- أخبرك سرًا يا صغيرتي؟
اقترب منها وهمس في أذنها مداعبًا:
- لولا مخافتي عليك من أعباء الحكم ومشقة المُلك؛ لأعلنت في البلاد أنك وريثة المُلك وملكة البلاد من بعدي، فما أهنأ البلاد بملكة مثلك يا صغيرتي.
ابتسمت ابتسامة رقيقة وزادت حمرة الخجل في وجهها وقالت:
- العفو يا مولاي، فأنت ملك البلاد وحامي الأرض، أطال الله عمرك وثبت أقدامك ورسخ ملكك، حتى تسلم المُلك لولدك عبد الله بيديك.
ضحك الملك وقال:
- المُلك كله لله يا بنيتي، وما نحن إلا جنود الله في أرضه، نحكم بأمره

---

(١) البلاذري: هو أبو بكر علي المشهور، وسمي بالبلاذري لأنه في آخر أيامه شرب نبات البلاذر؛ ففسد عقله، وهو من كتباء وشعراء العصر العباسي، ومن مؤلفاته فتوح البلدان وأنساب الأشراف، والبلدان الكبير، والبلدان الصغير.

ونقيم عدله، ولا يشغلني من يرث الملك من بعدي، ولكن يهمني أن يظل بنو هذيل أخوة متحابين كالجسد الواحد، لا يفترقون ولا يحيد أحدهم عن الشمل، لذا فإني أريد أن أزرع فيك وفي إخوتك وولدي وأحفاد عمتك الحب والإخاء والانتماء لبني هذيل؛ حتى يظلوا يدًا واحدة في وجه الفتن وتقوى شوكتهم، لا يفعلون كما فعل الطوائف فاختلفوا وتفتت دولتهم بعد أن كانت أقوى ممالك الله في الأرض.

- ونحن طوع أمرك يا عماه.

- وإيمانًا مني بلم الشمل وزرع الحب في القصر ودحر الضغينة عن نفوس بني هذيل، فقد اطمأن قلبي إلى ما حدثني فيه أبوك وعمتك بشأن زواجك من الوليد.

تغير وجهها وأطرقت برأسها وقالت:

- يا عماه لكني...

- ماذا يا بنيتي؟ تكلمي.

- لا أفكر في الأمر الآن، فأشعر أني ما زلت تلك الفتاة المدللة الصغيرة، كيف لي أن أصير زوجة وأمًا؟

ضحك الملك وقال:

- لو كل الفتيات فكرن كما تفكرين لما تزوجت فتاة على وجه الأرض.

- لكن الوليد يكبرني ومتزوج.

- ذاك لا يعيب الرجل يا ابنتي، فعادة الملوك وأبنائهم أن يتزوجوا كثيرًا لينجبوا ورثة ملكهم وأمراء دولتهم، كما أن الوليد رجل صنديد قوي، راجح العقل وصائب المشورة، اتخذته قائدًا للشرطة خلفًا لعمك العادل رحمه ا،لله وكان عمره زهاء العشرين، فلم أجد قائدًا مثله ولا أجدر منه.

- لكني لا أحبه، ولم أتخيله يومًا زوجًا لي، فلا أراه إلا أخًا كبيرًا، كان يلاعبني مذ كنت طفلة صغيرة ألهو في حديقة القصر.

- لم تحبيه لأنك كنت ترينه أخًا، ستحبينه حين ترينه زوجًا، ولا أرى أجدر من الوليد بك حتى أزوجك إياه، ولن أجد هدية أجمل منك أهديها إليه، فكلاكما

من نسل بني هذيل ومن آل البيت وسكان القصر، وإني أبخل بجوهرتي الثمينة على من هو خارج المملكة بل من هو خارج القصر، وإني يا ابنتي على أعتاب القبر، لا أدري كم من العمر بقي، وأريد أن أطمئن على صغيرتي الحسناء وألاعب صغارها قبل موتي.

- أطال الله عمرك يا عماه.

وانكبت على يديه تقبلها ثم قالت:

- بالله عليك يا عماه لا تحملني ما لا أطيق.

- زواجك من الوليد سيتم بعد عودتنا من الحرب منتصرين بإذن الله.

ترقرت الدموع في عينيها واختنق صوتها وقالت:

- سمعًا وطاعة يا ملك البلاد.

ثم استأذنت في الخروج.

في طريقها إلى جناحها الذي تقيم فيه قابلها الوليد فاستوقفها قائلًا:

- مرحبًا بابنة خالي أميرة القصر.

- مرحبًا بك أيها الأمير.

- أظنك كنت في حضرة الملك.

- أجل.

- وأظنه حدثك في أمر طلبي ليدك منه.

- أجل حدثني في الأمر.

- وما ردك؟

أدارت وجهها تريد استكمال سيرها وقالت:

- تعلم يا وليد أني أراك أخًا لي ولا أفكر في أمر الزواج، والرأي رأي أبي وعمي أولًا وآخرًا.

ثم استأذنت وأكملت سيرها.

خرج من حجرته مستندًا على عصاه يتجول بطرقات قصره ويستطلع الأحوال خارج وداخل القصر، دلف إلى داخل إحدى طرقات القصر ثم لفت انتباهه ضوء ينبثق من إحدى الغرف في آخر الطرقة؛ فاتجه إليها وطرق الباب قائلًا:

- أيأذن لي كاتب الملك بالدخول؟
نهض ابن الكاتب مسرعًا حين سمع صوت الملك قائلًا:
- تفضل يا مولاي فما تزيدنا إلا شرفًا ونورًا.
- كيف حالك يا محمد وحال مكتبتك؟
- في أحسن حال يا مولاي.
- ما كل هذا النشاط؟ أراك منكبًا على الكتب، وأراك أحسنت ترتيب الكتب وتجميل المكان كعادة أبيك دائمًا، رحمه الله كان مولعًا بالكتب مثلك.
- جزاك الله خيرًا يا ملك البلاد، فحرصك على العلم هو ما يشجعنا على ذلك.
- يا محمد، إن الحاكم الصالح هو من يزرع العلم في فضاء شعبه، ليجني بقاءه المستقبلي، ويتقي شر الفتنة، فالفتنة كالحبة لو سقطت على أرض خصبة من الجهل، نمت وتوحشت وحصدت في طريقها الأخضر واليابس.
- أحسنت القول يا سيدي أعزك الله.
- أخبرني ماذا تقرأ الآن؟
- أقرأ فتوح البلدان للبلاذري.
- أحسنت، فهذا كتاب قيِّم نسخه أبوك لنا منذ سنين، أخبرني ماذا قال البلاذري عن فتح الأندلس؟
- قال: أن طارق بن زياد كان أول من غزاها بأمر من موسى بن نصير، وكان ذلك في سنة ٩٢ هـ فلقيه أُليان وكان واليًا على مجاز الأندلس، فأمنه طارق على أن يحمله وأصحابه في السفن إلى الأندلس، فلما بلغها حاربه أهلها فانتصر عليهم وفتحها، وكتب إليه موسى بن نصير كتابًا غليظًا لتغريره بالمسلمين وأمره ألا يجاوز قرطبة، أرسل طارق إليه معتذرًا وترضاه فرضي، فسار إلى طليطلة ففتحها وهي مدينة مملكة الأندلس وأصاب منها مغانم عظيمة.
- أحسنت، رحمة الله على من حملوا راية الدين وجاءوا بها إلى تلك البلاد ناشرين حكم الله في الأرض.
- في كل بلد فُتحت كان هناك حكمة ودروس يا سيدي.
- أجل، إذن فأخبرني، ماذا قيل عن فتح مصر؟

- يقول البلاذري: أنه لما دخل عمرو بن العاص مصر خرج إليه نفر من النصارى طالبين منه ألا يقتلهم ولا يسبي نساءهم وأن يقر أرضهم في أيديهم يعمرونها ويدفعون منها الجزية، فأقر عمرو لهم ما طلبوا، أمر بالجزية تجمع في بيت المال ويوزع منها على كل رجل من أهل مصر جبة صوف وبرنسًا وعمامة وسراويل وخفين في كل عام.

- رحم الله ابن العاص كان نعم الوالي لخير خليفة، أحسنت يا محمد قد أجدت وأفدت، ستقيم هنا في قصر لا تغادر إلا بأمر مني، تزيدني من بحر علمك وتقرأ عليَّ ما نسخه أبوك وجدك، وسأرسل لك ولدي عبد الله تعلمه مما علمك الله، وتقرأ عليه من فيض علمك، فهو لا يحب القراءة ويتهرب من دروس العلم، وإني أخشى عليه من بغض العلم فيغيب عنه الحكمة والرشاد.

- سمعًا وطاعة يا ملك البلاد.

في صبيحة اليوم التالي ساد القلق في الوجوه وخفقت القلوب وزاغت الأبصار وشعر كل من في القصر بما بلغه الأمر من الجد، أصوات سنابك الخيل وصهيلها خارج أسوار القصر تضفي مزيدًا من الاضطراب في الأجواء، وصوت المنادي ينادي: "يا أهل شنتمرية، اجمعوا في ساحة القصر الآن ولا يتخلف منكم أحد"، العبيد والجواري كل يهرول إلى عمله، الملك يرتسم على وجهه علامات الحزم والشدة، الأمراء وقادة الجيوش منتظرين في غرفة العرش، كل يهاب الملك في تلك الحالة جلسوا كأن على رؤوسهم الطير، دخل إليهم الملك فنهضوا مرتبكين، جلس على عرشه وأشار لهم فجلسوا، ثم تكلم قائلًا:

- تعلمون أنه لم يبق إلا القليل، سنتحرك في الغد، وسأتمم بنفسي على ما أمرت من قبل بشأن الجيش والسلاح والمؤن والأموال والشرطة، وسأحاسب المقصر، سألقي الآن خطابي، وبعده أرى إن كنتم أنجزتم ما أمرت.

كان الناس قد اجتمعوا في ساحة القصر، وأغلقت الحوانيت بأمر الجنود، وأُغلق السوق ومنع البيع والشراء، ودُعي الناس للذهاب إلى ساحة القصر.

دخل الحاجب قائلًا:

- قد اجتمع الناس في ساحة القصر كما أمرت يا سيدي.

نظر إلى رجاله وقال:
- حسنًا اتبعوني إلى الشرفة.
ظهر الملك للعوام وخلفه أمراؤه فأخذوا يهتفون له ويحيونه، فأمر بأن تنثر الدنانير عليهم كعادة الملوك في استمالة فقراء القوم واكتساب ولائهم، فأصاب كل منهم نصيبه وهم يهتفون باسمه ويدعون له.
خطب فيهم قائلًا:
- "يا شعب شنتمرية العظيم، يا أهل البلاد وحراسها، يا ملاك الأرض وحراثها، تعلمون أن بني الرزين أجدادنا منذ أن وطئوا أرض الأندلس المباركة وقد أخذوا على
أنفسهم العهد أن يبذلوا دماءهم وأموالهم جهادًا في سبيل الله، قاتل أجدادنا في جيوش الفاتحين، وفتحوا بلادًا وعمروها، حتى بلغوا تلك الأرض وكانت قاحلة جرداء، ففتحها أبونا هذيل بن عبد الملك -رحمه الله- وعمَّرها وأصلحها وبث فيها الحياة، فصارت أفئدة من الناس تهوي إليها، وفاض الخير في ربوعها وصارت مملكة من أقوى ممالك الأندلس، تنعم برغد العيش وتخبو بها الفتن والحروب، وقد حرصنا خلفًا لأبينا على أن نسير على نفس خطاه؛ فبذلنا أرواحنا ودماءنا دفاعًا عن تلك الأرض المباركة، وفقدنا لأجلها أخانا العادل رحمه الله، لكي تبقى بلادنا أكثر أمنًا وجيشنا أشد قوة وأكثر جمعًا، فصرنا مطمعًا لأصحاب النفوس الضعيفة، حتى بلغ بصاحب سرقسطة أن يمني نفسه بغزو أرضنا وسلب خيرنا، فنصير عمالًا على أرضنا لا ملَّاكًا لها، أجراء وعبيد يذهب خيرنا لغيرنا ولا يصيبنا منه إلا النذر اليسير، لذا فقد جمعنا الجيوش وبذلنا الأموال دفاعًا عن أرضنا فأصبح الجهاد فرضًا لا فضلًا، لا يتخلف عنه كل من يقوى على حمل سلاح، وسأكون أنا أول الخارجين للجهاد وليكن لكم فينا أسوة.
ساد الصمت ولم يسمع إلا همهمات ونظرت العيون لبعضها في عجب، فلم يكن من عادة البلدان أن يخرج ملوكها مع المحاربين.
ثم أكمل قائلًا:
- واعلموا يا أهل شنتمرية أن الغزاة قساة، وأن القتال سجال، وأن الحروب

دروب، ودربنا فيها أن نغزو لا نُغزى وأن نبادِر لا نبادَر، وأن نحارب وديارنا خلفنا لا نتحصن فيها، لذا فقد عقدنا العزم على الخروج لملاقاة الغزاة خارج حدود البلاد، نتحرك من الصباح إلى غرب البلاد كل على قدر همته، وإني لأثق في عزائمكم، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

بعث خطاب الملك الهمة في النفوس ودبت الحماسة في القلوب ومضى الناس مقتنعين بما قال الملك تمام الاقتناع.

دخل إلى عرشه وحوله حاشيته.

قال الوزير ابن يحيى:

- أحسنت القول يا مولاي، فكلماتك تثير في النفوس الحماسة والحمية.

- انتهى وقت الكلمات وبدأ وقت الفعل يا ابن يحيى، أخبرني أولًا يا ابن مدين عن خزائنك.

- تفيض بالخير ببركة مولاي، فقد سلحنا الجيش وجهزنا المؤن والمتاع وهذا القرطاس مدون فيه كل ما أنفقنا.

التقط القرطاس من صاحب الخراج وبدأ يقرأ ما فيه ثم أكمل كلامه قائلًا:

- وأنت يا حافظ أخبرني عن جيشك.

- وزعت المهام وقسمت الجيش إلى خمس فرق ميمنة وميسرة ومقدمة ومؤخرة وقلب، يكون على رأس كل فرقة قائد تختاره أنت يا مولاي، وجعلت فرقة من الرماة وأخرى ستكون للمدد مكونة من بعض رجال الشرطة وحديثي الانضمام للجيش ممن لم يكتمل إعدادهم وتدريبهم، يقودهم الوليد ويعسكرون خلفنا على أطراف القطاع الغربي ويكونوا لنا مددًا إذا احتجنا.

- أحسنتم، فلنستعد إذن للمسير.

قال ابن يحيى:

- لكن أحقًا ما تقول يا مولاي، أنك ستخرج للحرب؟

- وماذا في الأمر يا ابن يحيى، سنكون أنا وأنت أول الخارجين.

- تهمنا سلامتك يا سيدي.

- هذه الحرب هي آخر أملي في الحياة، إما أن أسلم الأمانة لخليفتي آمنة

مطمئنة رغدة هانئة كما استلمتها من أبي، وإما أن أضيع أمانتي أمام ربي.
- لكننا نحتاج أن نستخلف أحدًا هنا يحافظ على الأمن داخل القصر وخارجه ويراسلنا ونراسله.
- أجل يا ابن يحيى، أما بشان الأمن فسنترك العباس بن جهور قائد حراسي؛ فهو أمين وأثق في قدرته وولائه، وأما بشأن الرسائل فسأترك الكاتب محمد بن الفتح بن هشام.
انطلقت الجحافل تطوي الطريق وتشق الصحراء، يقطعون واديًا تلو الآخر حتى بلغوا القطاع الغربي، ودخلوا تيروال فوجدوا أبا حمزة المراكشي والي القطاع في انتظارهم، فأحسن ضيافتهم وعسكروا عنده وتزودوا بما يحتاجون من الزاد، ثم اتجهوا إلى الحدود فعسكروا ثانيةً، وأمر الملك الوليد بن يحيى أن يعسكر هو وفرقته في انتظار أوامره بالتحرك، ثم واصلوا السير حتى اخترقوا الحدود ودخلوا إلى سرقسطة فالتحم الجيشان، ودارت رحى الحرب، وحمي الوطيس، واشتدت المعركة، واستمر الكر والفر، وكان وجود الملك الطاعن في السن في أرض المعركة يشعل الحماسة في قلوب الجنود، فأبلوا بلاءً حسنًا في أول أيام المعركة.
كان ابن الكاتب يجلس في حديقة القصر مع الأمير الصغير عبد الله بن الملك يعلمه ويقرأ عليه من بعض الكتب، وكان عبد الله قد اطمئن إليه وأنس به وأحب مزاحه وأسلوبه المشوق في التعليم والقراءة.
قال عبد الله:
- أتعلم يا محمد، أنك خير من المعلمين الكبار والعلماء الذين كان يجلبهم لي أبي من قرطبة وإشبيلية، فلم أكن أفهم دروسهم ودائمًا ما كنت أهرب منهم.
- إذا أحببت معلمك أحببت علمه، فإن أتى يوم ولم تعد تحبني؛ فاعلم أنك لن تحصِّل من علمي شيئًا.
- لن أكرهك يا محمد، فأنا للمرة الأولى أتذوق حلاوة العلم.
- إذن دعنا نكمل ما كنا نقرأه من علم الحديث.
وبينما هو مستغرق في قراءته، قطع استغراقه صوت من الخلف:
- السلام عليكم.

التفت خلفه قائلً:ا وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.
- هل تأذنا لي بالجلوس.
- تفضل.
- أنت محمد ابن الكاتب أليس كذلك؟
- أجل.
- وأنا أبو العباس بن جهور قائد حراسة الملك، وقد وكلنى أمر المدينة في غيابه، وأمرني أن أكون قريبًا منك كي ألبي حاجة القصر وأباشر الأمن والحراسة.
- على الرحب والسعة.
- سأنتظرك حين تفرغ من درسك لتأتي معي نمر على مواضع الحراسة حول أسوار القصر.
مضيا يتحادثان ويمران على مواضع الحراسة ثم دخلا إلى القصر مرة أخرى حتى بلغا موضع حراسة جناح النساء بالقصر، أمر بتشديد الحراسة فلا يدخل داخل ولا يخرج خارج إلا بأمر منه شخصيًا، ثم أكملا سيرهما في بستان القصر وسط أحواض الزهور وتحت عناقيد العنب المدلى كالمصابيح المضيئة، ثم انتبها إلى صوت قادم من غرفة البستاني، فاقتربا فسمعا صوت زمزم يغني بعض الموشحات الأندلسية بصوت مزعج عالٍ، فوقف ابن الكاتب على الباب قائلًا:
- ما أحلى هذا الصوت لو سكت!
انتبه إليهما زمزم فرد قائلًا:
- وماذا يضيرك من صوتى يا ابن الكاتب، ليتك تملك مثله، فصوت يغني خير من صوت ينادي لص لص يا حراس هناك لص فأمسكوه.
ضحك ابن الكاتب قائلًا:
- ألا تنسى هذا الأمر يا زمزم؟
- كلما هممت أن أنسى ذكرتني طقطقات عظامي.
ضحكوا جميعًا ثم استأذنهما ابن جهور في الخروج إلى المدينة لمتابعة أحوال الرعية والسوق.
امتن له ابن الكاتب وطلب أن يلقاه ثانية، فأخبره ابن جهور أنه من المؤكد

سيلتقيا.
جلس ابن الكاتب إلى جوار زمزم يراقب جروحه ويتحسس مواضع آلامه، فكان زمزم يتأوه ويصب اللعنات على ابن الكاتب كلما لامست يده جروحه ثم قال ابن الكاتب:
- كم ارتاحت نفسي لابن جهور هذا يا زمزم، فيبدو أنه من جنود الملك المخلصين.
- هو كذلك، يحبه الملك ويصطفيه ويثق فيه ويجعله قائدًا للحرس الملكي، لكن السيد الوليد صاحب الشرطة يمقته ويغار منه؛ لما يتمتع به من الحظوة عند الملك ويود لو استطاع إقصائه من مكانته هذه وتعيين من هو ولاؤه له لا للملك.
- ولم يفعل ذلك الوليد؟
- سأخبرك سرًا يا ابن الكاتب وعاهدني ألا تشي بي.
- لا تقلق يا زمزم، فما أنا بالواشي ولا النمام.
- إن الوليد وأباه الوزير ابن يحيى يحبان من كان ولاؤه لهما، ويودان أن يسيطرا على كل من في القصر، فهما يطمعان أن تؤول لهما الأمور يومًا، وتساعدهما في ذلك السيدة صفية شقيقة الملك.
- وهل الملك على علم بهذا؟
- سيدي الملك لا يستغنى عن الوليد فهو يثق فيه، وقرب الوليد من خاله الحافظ يزيد الملك حبًا له، وأمه دائمًا ما تزكيه عند الملك، كما أن الملك دائمًا ما يحب القادة الأقوياء، فيحب في الوليد شدته وقوة بأسه، فهو قاسٍ غليظ القلب داهية تهابه العبيد والجواري وتعمل له الرعية ألف حساب، إذا حكم أحكم وإذا عاقب أوجع، توسطت له أمه عند الملك كي يوليه أمر الشرطة، خلفًا لأخيها العادل -رحمه الله- ومن يومها وهو يسيطر على كل أمور الجند، شرطة كانوا أو جيشًا.
- وما شأن الجيش بالوليد، وقائده السيد الحافظ بن هذيل؟
- الأمير الحافظ تجمعه صداقة قوية بابن أخته الوليد، وكثيرًا ما يستشيره في أمور الجيش ويطلعه على الكثير من أسراره، وقد أخبرتني أمي أنه قريبًا ستجمعهما

علاقة مصاهرة.
- من بمن؟
- الوليد والحافظ، فالوليد قد خطب الأميرة رقية بنت الحافظ.
كانت المعركة في يومها الثالث قد بلغت ذروتها، وقد استعصى على جيش شنتمرية إحراز أي تقدم بعد ثلاثة أيام من الحرب الضروس، حتى بدأت الهمم تكل والقوى تخور ويدب اليأس في القلوب، أدرك الملك ذلك فأرسل إلى الوليد الذي يعسكر بفرقة المدد عند الحدود، جاء الوليد متقدمًا فرقته وهجم على جيش سرقسطة، وضربهم ضربات قاسمة، فلما رآه جيش شنتمرية انتعشت الآمال من جديد واستعادوا قوتهم وأجهزوا على السرقسطيين وضربوهم ضربة فرقت جمعهم وتبددوا في الفيافي فارين إلى الخلف، ولاحقهم جيش شنتمرية عدة أميال حتى دخلوا أسوار مدينتهم وتحصنوا فيها، أمرهم الملك أن يعودوا حتى لا يكونوا في مرمى سهام السرقسطيين وأن يرابطوا عند الحدود لحين التأكد من استسلام العدو للهزيمة، فعادوا ومعهم من الغنائم الكثير ومضوا محتفلين بالنصر العظيم يهنئ بعضهم بعضًا، وأخذ الجنود يهتفون باسم الملك ثم باسم الوليد الذي كان له فضل في النصر العظيم، فزاده الأمر زهوًا وغرورًا.
تأكد الملك من تحقق النصر؛ فعاد ومعه أمراء الجيش إلى تيروال فنزلوا عند واليها، وكان شديد الولاء للمك ويحبه الملك كثيرًا، فأكرمهم وأحسن ضيافتهم مرة أخرى وأعد الولائم احتفالًا بالنصر العظيم، وبينما هم جلوس يحتفلون قال الوزير ابن يحيى:
- يا سيدي لن يسكت السرقسطيون على تلك الهزيمة النكراء، ما العمل إذا استجمعوا قواهم وأعدوا عدتهم وباغتوا حدودنا مرة أخرى؟
- إذن فإني مستشيركم، فأشيروا عليّ.
قال الحافظ:
- نترك أغلب الجيش على الحدود ولا نأخذ معنا إلى وسط المدينة إلا بعضًا ممن نحتاج إليهم في معسكرات التدريب والحراسة.
قال الوليد:

- ويكون من الأفضل يا سيدي لو نبني لجلالتك قصرًا ملكيًا هنا تنزل فيه بين الحين والحين؛ فيطمئن أهلنا في الغرب لقربنا منهم ويأنسوا بملكهم المبجل.
- أحسنتم الرأى والمشورة، يا حافظ، اترك من الجيش هنا من تثق فيهم وأغدق عليهم العطاء وضاعف لهم الغنائم، ولنخرج في الغد لنتخير موضعًا نبني فيه قصرنا الجديد.
مال الوليد على أذن الملك قائلًا:
- وأنا يا سيدي أين هديتي؟
- أي هدية تقصد يا وليد؟
- زواجي من ابنة خالي، فقد كان الأمر مرهونًا بالنصر، أما وقد عدنا منتصرين فلم لا تكثر الأفراح ويصير العرس عرسين، عرس النصر وعرس الزواج من ابنة خالي.
- حسنًا يا وليد، إنك تستحق أن نهديك درتنا الثمينة.
ثم أمر أن تكتب رسالة إلى القصر يأمرهم أن ينادوا في الناس مبشرين بالنصر ويزفوا إليهم خبر زواج الأمير الوليد والأميرة رقية.
لما بلغت الرسالة ابن الكاتب وقرأها، أخبر ابن جهور بما فيها، فأمر المنادي أن ينادي في الأسواق والطرقات مبشرًا بخبر النصر ومعلمًا بإتمام عرس الأميرين بعد ثلاث ليالَ.
في ليلة هانئة سعيدة تفوح رائحة النصر مع نسماتها، كان نائمًا مستغرقًا في نومه حين هرع فجأة منتبهًا إلى صفعة قوية على وجهه، فنهض مسرعًا كمن لدغه عقرب يود الفتك بمن فعلها، ثم سكن وهدأ روعه حين رآه زمزم يقول له:
- تمهل، تمهل يا ابن الكاتب واهدأ فقد كنت أوقظك يا صديقي.
- أهكذا يوقظ المرء صاحبه يا زمزم؟
- لا وقت للكلام يا محمد، أرجوك أسرع معنا إلى جناح الأميرات، فالأميرة رقية بين الحياة والموت، أسرع بالله عليك.
فأسرعا يجريان ناحية الباب وكان ابن جهور على الباب مضطربًا يقول:
- هيا يا محمد بسرعة؛ فأطباء المدينة قد رافقوا الجيش ولا أدري ماذا أفعل،

لا وقت لدينا.
وأسرعوا جميعًا نحو جناح الأميرات.
كان الجناح مضطربًا يموج بعضهم في بعض والجواري يجتمعن على الباب ويعلو الصراخ والنحيب، دخل ابن الكاتب إلى غرفة الأميرة ووقف ابن جهور وزمزم على الباب مانعين الجواري من الدخول.
تقدم ابن الكاتب إلى داخل الغرفة المظلمة المضاءة بشموع خافتة، ثم اقترب من فراش الأميرة المنعم المزركش الزاهي ورأى على جانبي الفراش وصيفتيها تبكيان،
اقترب أكثر فرأى وجهًا من أبدع ما خلق الله وصور، يتسلل ضوء القنديل وسط الظلام إلى هذا الوجه الجميل والشفاه الغضة والأهداب السوداء الطويلة فيزيدها تلألؤًا وبهاء، كان شعرها الكستنائي الناعم ينسدل إلى جانبها ويلمع مع ضوء القناديل وكأنه ماء الذهب، فتبدو للرائي وكأنها من حور الجنة، أمسك بيدها يتحسس نبضها فشعر برعشة تسري في جسده تهز كل كيانه، يزداد معها خفقان قلبه وتدور عينه كالمخمور ثم تماسك شيئًا فشيئًا واستجمع قوته وأمسك بيدها وتحسس نبضها، فأحس بسرعة دقات قلبها، أخذ يقلب في وجهها فلاحظ ذبولها وشحوب لونها وارتخاء جسدها وتسارع أنفاسها، ثم لاحظ العرق يتصبب بغزارة منها، فتح عينيها بلطف فوجد اكتمال إبداع الخالق في تلك العينين الزرقاوين، لكن أفزعه ضيق حدقة العين فنظر إلى الوصيفتين قائلًا:
- لا بد وأنها تسممت بشيء ما، هل أكلت أو شربت شيئًا؟
- لا فهي لم تذق شيئًا منذ الأمس ولا ندري ما بها.
- ابحثوا في جوانب الغرفة ربما تجدوا أثرًا لطعام أو شراب.
وأخذ يبحث في أرض الغرفة وجوانبها حتى عثر على قارورة ملقاة على الأرض مسكوب ما فيها، أمسكها بحذر وأخذ يستطلع ما فيها ويشتم رائحتها ثم قال:
- لا بد وأنها عصارة نبات النبيالة(١) السام، من أين جاءت تلك القارورة؟

---

(١) النبيالة: هو نبات سام من نباتات سرقسطة، كان الجنود يعصرونه ويضعون عصارته على سهامهم ورماحهم فتزداد فتكًا، وكان يسمى أيضًا بالطورة.

ردت الجارية:
- لا ندري يا سيدي فهذه أول مرة نراها.
أخذ يفكر قليلًا ثم خرج مسرعًا فناداه ابن جهور وزمزم:
- إلى أين أنت ذاهب؟
- إلى غرفة الكتب سأعود بسرعة، لا تسمحوا لأحد بالدخول.
ذهب إلى غرفة الكتب وأخذ يقلب في الكتب حتى وجد كتاب القانون في الطب(١) لابن سينا، ففتح على الصفحة التي يريد قراءتها، ثم عاد مسرعًا ونزل إلى حديقة القصر وأخذ يجري بين النباتات يبحث عن نبات يلبي حاجته، حتى عثر على نبات الديسقوريا الأنبوبية(٢)، فقطع منه غصنًا وعاد يهرول نحو غرفة الأميرة وكانت الملكة صفية قد حضرت لتطمئن على الأميرة، لم ينتبه ابن الكاتب لوجودها وأخذ ينادي في الجواري أن يحضرن ماءً وملحًا وشيحًا وحنظلًا وريحانًا وقشر رمان ولبنًا وعسلًا وخميرة، أمسك بالغصن الأنبوبي اللين وأدخله في فم الأميرة حتى بلغ معدتها، ثم شفط بفمه حتى بدأت عصارة المعدة تنساب في الأنبوب، فأدلاه لأسفل حتى أفرغ ما فيه في الإناء، ثم أخذ يسكب مزيج الماء والملح من فوهة الأنبوب إلى داخل معدتها ثم يشفطه مرة أخرى، فعل هذا مرارًا حتى أفرغ ما في جوفها.

---

(١) كتاب القانون في الطب: هو كتاب ألفه أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا، وهو عالم من بخارى عرف بالشيخ الرئيس وأمير الأطباء، ألف مائتي كتابًا في الطب والفلسفة، ومن أشهر كتبه القانون في الطب، والذي كتبه في القرن الحادي عشر الميلادي، والذي ترجم للعديد من اللغات ويعتبر من أهم مراجع الطب في العالم.
(٢) نبات الديسقوريا: هو نبات يتبع الفصيلة الديسقورية، وسمي بهذا الاسم نسبة إلى الطبيب الإغريقي ديسقوريدوس، والنوع الأنبوبي منه له جذوع أنبوبية خضراء لينة، وهناك أنواع أخرى منها الإسفنجية والبرانسية والإبريقية والأنديزية والبلقانية.

لم يمض الكثير من الوقت حتى بدأت الأميرة تفتح عينيها وتستفيق نظر إليها ابن الكاتب في لهفة بعينين لامعتين قائلًا:

- حمدًا لله على سلامتك يا مولاتي.

اكتفت بالنظر حولها محاولة استجماع شيئًا من قوتها، أمسك ابن الكاتب بإناء الحنظل وسقاها برفق، فما أن دخل جوفها حتى أفرغت ما تبقى في بطنها، ثم أمسك بإناء الشيح وحاول أن يسقيها فأشاحت يديه عنها وقضبت شفتيها ورفضت تناول أي رشفة أخرى.

قال لها برفق:

- أرجوك يا سيدتي، فهذا دواء سيساعدك على إخراج ما نزل من السم إلى أحشائك أرجوك.

بعد إلحاح تناولته، ثم أمر أن ينقع قشر الرمان مع الريحان والخميرة في الماء ويترك مدة من الوقت، وأمر الجواري أن يأخذن الأميرة لتغتسل وتبدل ملابسها، فربما قد أصاب يديها أو ملابسها شيء من هذا السم، وألا يتركوها حتى تتغوط وتخرج ما في بطنها من السم، وحين تخرج تشرب من الترياق وتسقى بعده باللبن المخلوط بالعسل ولا يدخل جوفها سواهما، ثم أخبر الأميرة أنه سيعود للاطمئنان عليها واستأذن للخروج.

نادته سيدة القصر قائلة:

- انتظر أيها الطبيب، أخبرني ما الأمر؟

أدرك من هيأتها أنها السيدة صفية.

- عفوًا يا سيدتي لم أنتبه إلي وجودك فقد كان الأمر مذهلًا حقًا، يبدو أن الأميرة قد شربت سمًا بالخطأ؛ فكان لا بد من تفريغ جوفها من السم وتطهير معدتها بالترياق، والحمد لله قد وفقنا الله في هذا.

- أحسنت صنعًا ولكن متى تستعيد الأميرة عافيتها؟

- ربما يأخذ الأمر وقتًا طويلًا؛ فاختلاط السم بالدم قد يجعلنا في حاجة لبعض الوقت من أجل التخلص من بقاياه واكتمال الشفاء.

- إذن فلتقم معنا في القصر أيها الطبيب؛ لتكون قريبًا من الأميرة لحين اكتمال

الشفاء، وخذ صرة الأموال هذه جزاء حسن صنيعك وأجرًا على تعبك وإجادتك، ولك مثلها بعد اكتمال الشفاء.
- يا سيدتي أنا لست طبيبًا، أنا كاتب الملك، محمد بن الفتح بن هشام، وإني مقيم في القصر، وقد وكلنى الملك أمور القصر لحين عودته بإذن الله، وهذا عملي ولا آخذ جزاء عليه.
- أما بشأن المال فهذا الأمر أمرك، تأخذه أو ترده فلا لوم عليك، وأما بشأن أمور القصر فلا تدار بالوكالة وفي القصر ملكة تأمر فتطاع، أتفهم أيها الكاتب؟
ساد الوجوم وجهه ثم نظر إليها في حنق وقال:
- أفهم يا سيدتي، أستاذنك بالخروج.
ما أن خرج حتى وجد على الباب ابن جهور وزمزم يهللان ويثنيان عليه ويهنئانه على إنقاذه حياة الأميرة، أو على الأرجح إنقاذ حياتهما من غضب الملك عليهما.
قال ابن جهور:
- أحسنت صنعًا فلولاك لعُلقنا ثلاثتنا على أبواب القصر، لو كان أصاب الأميرة مكروه.
قال زمزم:
- نعم! ثلاثة من؟ وما شأني أنا بأميرات القصر، أنا فقط مسؤول عن بستان القصر، أشجار القصر، نباتات القصر، فاكهة القصر، وإن كان لا بد لي من عقاب فابن الكاتب مدين لي وسيأخذ قسطي.
ضحكوا إلا ابن الكاتب والذي كان شاردًا مفعمًا لبه بخواطر ممتزجة ما بين الانبهار بالأميرة الحسناء والغيظ من عمتها الشمطاء،
ثم انتبه إلى صوت زمزم يقول:
- ما بك يا صديقي؟
- لا شيء يا زمزم، لا شيء.
اصطف الجنود يحيون ملكهم المنتصر، فمر من بين صفوفهم يحييهم ويشكر لهم حسن بلائهم، ويوزع عليهم الغنائم ثم خرج مع حاشيته ليختاروا مكانًا للقصر الجديد، اطمأن الملك إلى واد سهل خصيب خلف ربوة عالية بالقرب من

أحد الجداول الصغيرة، وقال:
- هنا نبني القصر، وأمر بحفر الأساس ثم مضى مع رجاله يوزعون أماكن الحراسة داخل المدينة وعلى الحدود.
كانت جالسة في فراشها يكسو الحزن والوجوم ملامح وجهها الرقيق، كان ختوّها(١) يبعث في النفس شفقة عليها، وكانت عمتها صفية تجلس إلى جوارها، والجاريتان فجر وسليمى تحملان البخور وتجولان في أرجاء الغرفة ترقبان الأميرة المريضة.
استأذن ابن الكاتب في الدخول فأذنت له صفية.
دلف إلى الداخل قائلًا:
- كيف حال مولاتي الأميرة الآن؟
- نحمد الله فقد تحسنت كثيرًا، لكنها صامتة لا تتكلم منذ أن أفاقت، ونريد أن نطمئن عليها ونعرف إن كان قد زال الخطر أم لا.
نظر إليها فقد كانت راقدة تزين فراشها كالبدر يزين كبد السماء تراقبه بعينيها الجميلتين، لما وقعت عيناه في عينيها زاد خفقان قلبه واحمر وجهه وتلجلج برهة ثم قال:
- كيف حالك الآن يا سيدتي؟
لم ترد عليه واكتفت بالنظر بعينين تترقرق الدموع بهما.
نظر إلى صفية قائلًا:
- بعد إذن سيدة القصر هل تسمحين لي أن أختلي بمريضتي قليلًا؟ فقد يساعدني ذلك على إتمام شفائها بإذن الله.
نظرت في شذر ثم خرجت وخلفها الجاريتين.
اقترب من فراشها وجلس إلى جوار سريرها وقال:
- حمدًا لله على سلامتك يا مولاتي.
اكتفت بالنظر إليه ولم ترد.
- هل تسمحين لي أن أتحسس نبضك، ومد يده محاولًا إمساك يدها فانزعجت

(١) الختو: التخشع والانكسار بسبب حزن أو مرض.

وسحبت يدها بسرعة.
- لا تقلقي يا سيدتي، ساعديني أرجوك.
تحسس النبض وراقب أنفاسها وعينيها ثم قال:
- الحمد لله لقد زال الخطر، فقد جرت الدماء في وجهك من جديد وسكن اضطراب القلب وهدأت الأنفاس، هل تشعرين بشيء من المغص أو الغثيان؟
...-
- صارحيني فلربما كتمانك يزيد الأمر تعقيدًا.
...-
- أخبريني ما الذي حملك على هذا؟ لم حاولت الانتحار؟
لم أخبر أحدًا بذلك، فقط أخبرتهم أنك شربت السم بالخطأ، ولن أخبر أحدًا بما تفضيه إلي، فأنا كتوم أمين.
...-
- بالله عليك ماذا جنت نفسك البريئة وروحك الطاهرة لكي يكون جزاءها القتلُ منك؟ النفوس أمانة أودعها الله في أجسادنا يستردها وقتما يشاء ولا يجوز لنا أن نضيع أمانة أودعنا الله إياها، وقتل النفس لا يحل أمورًا يا سيدتي، بل يخلف خزيًا في الدنيا ووعيدًا في الآخرة، أخبريني بالله عليك ما الذي يحمل أميرة جميلة مثلك على هذا وعرسها بعد ثلاثة أيام؟ لا تريدين الزواج من الأمير؟
ترقرقت عيناها بالدموع فاستطرد قائلًا:
- ربما لو تصارحين طبيبك يساعدك في تأجيل الزواج بإقناع الملك أن الأميرة تحتاج إلى مزيد من الراحة لاكتمال الشفاء.
...-
- هل أقنع الملك بتأجيل الزواج؟
أحست وكأنه القشة التي تتعلق بها في غرقها، وأنه منقذها فانتعش الأمل بداخلها وأومأت برأسها موافقة.
- ولحين يتم ذلك عديني ألا تؤذي نفسك ثانيةً وسأفعل ما بوسعي لمساعدتك.
أومأت ثانية بالموافقة.

طرقت صفية الباب ودخلت قائلة:
- أخبرني كيف الحال الآن.
- الحمد لله تتحسن الأمور كثيرًا، لكن تحتاج الأميرة لهدوء تام وهواء نقي ولا يقترب منها أحد لحين اكتمال الشفاء.
- وكم من الوقت تحتاج لاسترداد عافيتها.
- إن جسدًا خالطه السم ربما يحتاج لعدة أيام كي يخرج بقايا السم منه.
- عدة أيام؟ أريد الإسراع؛ فعرس الأميرة بعد ثلاث ليالٍ.
- لا يا سيدتي، لن تقوى الأميرة على ذلك الآن، فهي ما زالت خائرة القوى منهكة الجسد تحتاج إلى الراحة والسكون.
- ماذا تقول؟ أرسلوا لابن جهور كي يبعث في إحضار الأطباء من قرطبة ويعجل في الأمر.

***

في صباح اليوم التالي كان ابن الكاتب يجلس في البستان مع عبد الله يعلمه ويقرأ عليه الكتب، استأذن عبد الله من معلمه ونهض وركض مسرعًا حين رأى الأميرة تسير من ورائهم مع وصيفتيها وسط حياض الأزهار، أقبل عليها بلهفة واحتضنها واحتضنته وقال:
- حمدًا لله على سلامتك يا رقية، فقد أفزعني أمر مرضك كثيرًا.
- أنا بخير يا عبد الله، وأنت كيف حالك؟
- أتعلم العلم وأدرس الكتب.
- الحمد لله الذي هداك للعلم، لقد كنت دائمًا ما تتهرب منه وتغضب أباك الملك.
- لقد أحببت العلم بفضل معلمي الجديد، إنه مختلف عن أي معلم سابق.
ابتسمت رقية وقالت:
- ومن يكون هذا المعلم الذي جعلك شغوفًا بالعلم هكذا؟
- تعالي معي يا رقية واحضري الدرس، فمعلمي ماهر حسن الأسلوب.
أقبلا ناحية محمد وما أن اقتربا ورأت وجهه حتى اضطربت ووقفت فقال عبد

الله:
- لا تقلقي يا رقية، فهذا محمد كاتب الملك الجديد وهو ابن السيد الفتح بن هشام رحمه الله.
جلست الأميرة وهي تنظر إليه مرتبكة، فحاول تلطيف جو القلق قائلًا:
- كيف حال أميرتي اليوم؟
...-
- هل عدت إلى الصمت ثانية، ألم نتفق أن تساعديني حتى أساعدك.
أشارت لوصيفتهيا بالانصراف ثم قالت بصوت خفيض:
- من أنت؟ كاتب أم طبيب أم معلم؟
قال عبد الله:
- محمد يا رقيه حيثما يوضع يجيد.
- يبدو ذلك يا عبد الله، أخبرني ماذا يقرأ عليك معلمك الطبيب الكاتب؟
- يقرأ على من كتاب أسرار البلاغة(١).
- حسنًا واصلا ما بدأتماه، أريد أن أستمع وأتعلم البلاغة.
أكمل محمد قراءته:
- فصل الفرق بين التشبيه والتمثيل، إذ قد عرفت الفرق بين الضربين، فاعلم أن التشبيه عام والتمثيل أخص منه، فكل تمثيل تشبيه، وليس كل تشبيه تمثيل، فأنت تقول في قول قيس بن الخطيم:
وقد لاح في الصبح الثريا لمن رأى
كعنقود ملاَحية(١) حين نورا
إنه تشبيه حسن، وليس تمثيل.
كانت تراقب عينيه المستغرقتين في القراءة، وتحدث نفسها ما سر هذا الشاب

---

(١) كتاب أسرار البلاغة: كتاب في علم البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني، وهو من المؤسسين لعلم البلاغة، وهو فارسي الأصل ولد في جرجان وعاش فيها إلى أن توفي عام ٤٧١هـ، ومن مؤلفاته أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز.
(٢) الملاحية: هو نوع من العنب حبه طويل طعمه جميل.

وسيم الوجه بليغ القول حاد الذكاء، الذي دخل للتو إلى رحاب القصر، أحبه الملك وأدناه منه، وأمنه على قصره وأهله وولده فأحبه الأمير الصغير، ثم اقتحم حياتهـــا

فجأة وأنقذها من الموت ووعدها أن يساعدها فاستجابت إليه؟ لِم تستسلم له كل هذا الاستسلام وتثق فيه كل تلك الثقة؟ ربما لأنها أحست بيده تمتد إلى يديها لتأخذها من عالمها المظلم الموحش إلى عالم آخر أكثر أمنًا وإشراقًا، ربما لأنه أصبح بالنسبة إليها الأمل الأخير.

بينما هو يقرأ إذ لاحظ شرودها فقطع القراءة وقال:

- يا عبد الله أكمل قراءة هذا الفصل وسوف أخذ مريضتي في جولة استشفاء عند النهر ونسيمه العليل، وحين أعود سأختبرك فيما قرأت.

مضيا يسيران في البستان ناحية النهر قال لها:

- لاحظت شرود مولاتي، فيم كانت تفكر إذن؟

- كانت تفكر في حالها.

- ولِم يكسو الحزن ملامحها الجميلة؟

- وهل من شيء يفرح القلب وتنفرج له الأسارير؟

- إذن كنتُ محقًا حين قلت أن سبب فعلتك تلك هو هروبك من الزواج من الأمير الوليد.

سكتت برهة ثم قالت:

- أجل كنت محقًا.

- ألا تحبينه؟

أطلقت من صدرها زفرة ملتهبة ثم سكتت برهة وقالت:

- لا أحبه، وليتني ما كنت يومًا أميرة ولا سليلة الملوك، ليتني فتاة فقيرة تتزوج من يختاره عقلها وتطمئن إليه نفسها ويعشقه قلبها، ولا يكون فرضًا عليّ أن أتزوج رجلًا لا أحبه، ولا تتوق له نفسي، لديه من النساء الكثير، أهاب مكره وأخشى بأسه، ولا آمن غدره، أتزوجه لمجرد أنه من أهل القصر ونسل الملوك.

- لكن يقولون أن الحب لا يأتي دائمًا أولًا، فهو كالضيف الثقيل إن جاء متأخرًا

لا يغادر إلا بشق الأنفس.
- أجل ولكن شرط القبول والاستمالة، أما لو كانت روحك وروحه متنافرتين لا تلتقيان، فلِم تحمِّل نفسك ما لا تطيق؟
- لكن الوليد أمير مقدام وفارس شجاع، ذو منصب وجاه، تتمناه الأميرات ولا ترفضه أي فتاة.
- ما هكذا تحب القلوب يا ابن الكاتب، فالنفوس تألف بشبيهاتها، والعيون تميل إلى مؤنساتها، والقلوب تهفو إلى مكملاتها، والأرواح تنجذب إلى توائمها.
- أحسنت القول يا أميرتي.
- أميرتي؟ كم هي حلوة منك تلك الكلمة.
ابتسم ابن الكاتب وقال:
- من كانت تملك قلبًا في نقاء قلبك، وروحًا في صفاء روحك، وعقلًا في رجاحة عقلك، ولسانًا في فصاحة لسانك، وجمالًا في بديع جمالك، تستحق أن تكون أميرة كل زمان ومكان، كل قصور وعصور، كل البشر لا أميرتي وحدي، لكن إضافة سمو الأميرة إلي بياء المتكلم يرفع قدري، ويعلي مقماي، ويزيد شرفي ويطري لساني، ويطرب أذني ويحي قلبي، ويشعرني بأنك جزء مني.
احمر وجهها خجلًا ونظرت إليه بملامح جادة وقالت:
- أمجنون أنت حتى تغازلني؟
- ما العفيف منه بإثم.
- تقول لامرأة أجنبية عنك إنها جزء منك وتدعي العفة يا هذا؟!
هم يفتح فاه ليبادر بالاعتذار فبادريته قائلة:
- اصمت ولا تنبس ببنت شفة(١)، ولنرجع إلى القصر، وسيكون لك مني شأن آخـر.
مضت فسار بجوارها محاولًا الاعتذار فلم تعره أي اهتمام، كانت خصلاتها تتطاير مع النسيم العليل يداعبها كما يداعب أوراق الشجر ويحرك قلب ابن الكاتب كما يحرك صفحات الماء، في بطن جسر النهر كانت حولهما الجواري يملأن الجرار من النهر.

قال ابن الكاتب:
- هل تسمح لي الأميرة أن أستذكر مع نفسي ما قرأت من أمر ملوك الأندلس؟ فأنا رجل كثير النسيان وكي لا أنسى ما قرأت؛ نصحني شيوخي أن أجهر به في غدوتي ورواحي(٢).
نظرت إليه في عجب ولم ترد.
استرسل قائلًا:
- كان محمد بن عباد(٣)، ولد ملك إشبلية قبل ولايته للحكم، يتمشى مع صاحبه ابن عمار،
عند النهر كمشيتي هذه، وكانت الفتيات يملأن الجرار من النهر كهؤلاء الفتيات، وكان ابن عباد محبًا للشعر مثلي، و بينما هما يمشيان، نظر إلى تموجات النهر بفعل
الرياح، وقال:
"صنع الريح من الماء زرد".
وطلب من ابن عمار أن يكمل ببيتٍ آخر من الشعر على نفس الوزن والقافية، فأخذ ابن عمار يفكر ولكن دون جدوى، كأن الله أراد أن يخرسه، لينطق تكملة البيت على لسان الجارية "اعتماد"، التي كانت عند حافة النهر تخوض في الطين وتملأ الجرار، فسمعتهما، فأكملت قائلة:
"أي درع لقتال لو جمد".

---

(١) بنت شفة: كناية عن الكلمة، ولا تنبس ببنت شفة أي لا تتكلم.

(٢) غدوتي ورواحي: أي طوال اليوم، والغدوة هو الوقت ما بين الفجر إلى طلوع الشمس، والرواح هو الوقت ما بين زوال الشمس إلى الليل، وفي القرآن: "ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر".

(٣) محمد بن عباد: كان ملكًا لإشبيلية في عصر ملوك الطوائف، ورث الحكم عن أبيه وقويت البلاد في عصره، فوسع ملكه واستولى على قرطبة وبلنسية، وكان محبًا للشعر والأدب، وأحب جاريته اعتماد فلقب بالمعتمد، وسقطت ولايته على يد يوسف بن تاشفين عام ٤٨٤هـ.

مكملة صدر البيت الذي نطق به الأمير؛
فكان هذا البيت سبب سعدها، وشقائها فيما بعد، فما أن وقعت عين محمد بن عباد عليها، حتى افتتن بجمالها، كما افتتن بسرعة بديهتها وذكائها.
وعرف أنها جارية عند الرميك بن الحجاج تخدم زوجه، فأرسل الخدم والمزينات ليخطبوها له ويحملوها إليه لا كجارية، ولكن كزوجة حرة.
وكان محمد ولهًا بها، لا يصبر على فراقها ساعة، يكنُّ لها محبة خاصة، حتى إذا مات أبوه المعتضد وتولى من بعده الحكم اشتق لقب الملك من حروف اسمها، فسمى نفسه، "المعتمد بالله بن عباد"، من اسم الزوجة " اعتماد"، الجارية سابقًا، لتخلد محبته لها في أخبار التاريخ.
عاشت معه في رفاهية وعز فاق الوصف، وحظيت عنده حتى كان لا يرد لها طلبًا،
وفي يوم من الأيام كانت "الملكة اعتماد" تنظر من شرفة قصرها فرأت جواري يبعن اللبن وقد شمرن عن سوقهن وسواعدهن يخضن في الطين، فحنت إلى ماضيها فقالت:
- أشتهي أن أفعل أنا وبناتي كفعل هؤلاء الجواري، فما كان من الملك ابن عباد إلا أن بادر إلى تلبية طلبها ولكن بطريقة البذخ والتبذير المفرطة حيث أمر بالعنبر والمسك والكافورفسحق بماء الورد ليكون في هيئة الطين، وأحضر القِرب والحبال لاعتماد وبناتها الأميرات فحملن القرب والحبال ورفعن عن سوقهن وخضن في طين العنبر والمسك والكافور.
دارت الأيام وغزا ابن تاشفين إشبيلية وأوقعه في الأسر، ثم نفاه هو وزوجته إلى أقصى بلاد المغرب، وأسكنه في بيت وضيع وضيق عليه في الرزق حتى صاروا فقراء معدمين، وذات مرة غضبت منه زوجته فقالت:
- لم أر منك خيرًا قط.
فقال:
- ولا يوم الطين؟
فتذكرت ذلك اليوم فضحكت وقالت:

- الطين ما نحن فيه.
أخذت تغالب ضحكة تكاد تقفز من بين شفتيها وادعت مزيدًا من الحزم والضيق،
استرسل قائلًا:
- أما وقد غضبت مني الأميرة، فقد صار هذا اليوم يوم طين كذلك.
لم تستطع الأميرة أن تكتم ضحكاتها أكثر من ذلك، فانطلقت الضحكات من بين شفتيها كطير أدرك باب محبسه، فطار قلبه فرحًا مع صوت ضحكاتها،
وكانا قد بلغا جناح الأميرة، فاستأذنها في الانصراف، لم ترد عليه وظلت تضحك حتى بلغت الباب فرأت عمتها واقفة تنظر إليها فسكنت ضحكاتها، قالت عمتها:
- أين كنت يا صغيرتي؟
- نصحني الطبيب أن أستنشق هواءً عليلًا، ربما يساعدني على الشفاء.
- اصعدي لأعلى ولا تخرجي إلا بعلمي، فأنت ما زلت تحتاجين مزيدًا من الراحة .
في صباح اليوم التالي كان القصر على أُهبة الاستعداد لاستقبال جيش النصر، الكل يباشر عمله، ابن جهور ومحمد الكاتب يتابعان العمال والجنود وهم يعلقون الأعلام ورايات النصر فوق الأسوار وفي الطرقات، ويعدون ساحة القصر لاستقبال المهنئين ويقيمون بها الموائد، وصفية تجتمع بجواريها وتعدهن للقاء الملك، وتتخير أحسنهن صوتًا لتغني أناشيد النصر أمام الملك ورجاله.
وسط هذا الضجيج كانت واقفة في شرفتها ساكنة شاردة تتابع ما يجري في الأسفل، تقلب نظرها يمينًا ويسارًا تبحث عنه وسط الزحام، ثم رأت الملك الصغير يسير في البستان مع أمه ويتجه ناحيته، فأبصرته بعينها فحدثت نفسها: نعم إنه هناك.
اقترب منه عبد الله وحياه قائلًا:
- السلام عليك يا صديقي المعلم.
تهلل حين رآه فرد قائلًا:

- وعليك السلام يا صغيري الملك.
- ماذا سنحصِّل اليوم من العلم؟
ضحك ابن الكاتب قائلًا:
- أراك قد أحببت العلم إذن.
- أحببته على يديك أيها المعلم النبيه.
- إذن فاذهب وأحضر كتابك وتعال نجلس في مجلسنا الأثير.
فذهب عبد الله مع أمه إلى الداخل.
استغلت الأميرة انشغال صفية مع جواريها ونزلت إلى البستان وأبدت انشغالها بجمع الورود وري الزهور، وأمسكت إبريقًا صغيرًا ومشت بلطف وسط حياض الزهور، لمحها ابن الكاتب فكاد قلبه ينخلع وكأنه طائر حبيس يضرب بجناحيه أسوار محبسه؛ عله يجد سبيلًا للتحليق في أفق الخيال الجميل.
عاد عبد الله بعد قليل وفي يده الكتاب، قال له محمد:
- ماذا لو طلبت من أميري الصغير طلبًا؟
- ما كان لطالب العلم أن يرفض طلب معلمه.
قطف وردة جميلة نضرة تنساب قطرات الندى فوق أوراقها الحمراء القانية الجميلة فتزيدها بريقًا وتبعث في النفس بهجة لا توصف وقال له:
- أترى الأميرة الحسناء التي تروي الأزهار هناك؟
- رقية؟
- أجل، أعطها هذه وقل لها:
فمن عفا وأصلح فأجره على الله.
ذهب إليها وقال لها ما قاله ابن الكاتب فقالت:
- ردها إليه وقل له: بل أنتم بهديتكم تفرحون.
قال
- اذهب إليها وقل لها: ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فه كالحجارة أو أشد قسوة.
قالت:

- ارجع إليه وقل له: ذلك بما قدمت يداك.
قال:
- قل لها: وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء.
فقالت:
- ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا.
قال:
- الأمر إليك فانظري ماذا تأمرين.
قالت:
- نحن أولو قوة وأولو بأس شديد.
قال:
- فاقض ما أنت قاض.
قالت:
- لأعذبنه عذابًا شديدًا أو لأذبحنه.
قال:
- وإن تعفوا هو أقرب للتقوى.
قالت:
- وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله.
قال:
- تالله لقد علمتم ما جئتنا لنفسد في الأرض.
قالت:
- يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم.
قال:
- والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين.
قالت:
- قد أجيبت دعوتكما فاستقيما.
قال:

- إنا إن شاء الله لمهتدون.
قالت:
- ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون.
وهنا تعب عبد الله من كثرة المجئ ذهابًا وإيابًا؛ فتركهم وجرى إلى داخل القصر قالا:
- إلى أين أنت ذاهب يا عبد الله؟
رد قائلًا:
- ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغمًا كثيرًا وسعة.
وهنا ضحكا كثيرًا حتى اختفى عبد الله إلى داخل القصر.
فنظر إليها وقال:
- أشكر مولاتي الأميرة على رقة قلبها وسعة صدرها ومسامحتها قلبي المذنب البريء.
ردت بحزم قائلة:
- لا يغرنك حلمي فإن عدتم عدنا.
- لا، لا، قلبي المسكين تاب وأصبح من النادمين.
ابتسم ثغرها الوردي الجميل بابتسامة هادئة، ثم سكتت برهة وقالت بصوت رقيق:
- من أنت؟
سكت محاولًا استيعاب سؤالها المفاجئ ثم رد قائلًا:
- أنا محمد بن الفتح بن هشام، جدي هو الشاعر هشام بن الحجاج، كان من أشهر شعراء قرطبة، التقى به جدك هذيل بن عبد الملك فأعجب بشعره، وحين نشب الخلاف بين قرطبة وسرقسطة انفصل بنو الرزين بتلك الأرض وجعلوها مملكة مستقلة، فدعا الملك هذيل بن عبد الملك الشاعر بن الحجاج ليكون في كنفه، فظلا متلازمين ونشأ ابناهما معًا وصارا صديقين -الحاكم بن هذيل والفتح بن هشام- ولما تولى مولاي الحاكم المُلك عرض على أبي أن يوليه أي منصب يختار فرفض وآثر ديوان الكتابة، وأقام معه في القصر إلى أن تزوج فاستأذن

الملك في الانتقال إلى خارج القصر، وكان لا يزال يباشر عمله في ديوان الكتابة، كنت أنا أول ثمرة زواجه فعمد إلى تعليمي ما تعلمه، وأن ينشئني على أيدي العلماء، فأرسلني صغيرًا إلى أهلنا في قرطبة، فمكثتُ عندهم ودرست العلم في قرطبة، فما تركت عالمًا ولا شيخًا إلا وتعلمت منه، فقد كانت زاخرة بالعلماء والفقهاء، وكانت وما تزال حاضرة المدن وعاصمة العلم والعلماء، كنت آخذ من شيخي الكتاب لأقرأه، فأبيت عليه أنسخه وأرده إليه في اليوم التالي، فاحتفظ بتلك النسخة أقرؤها متى شئت، ثم صارت هي مهنتي التي أكسب منها قوت يومي، حتى نسخت زهاء الألف كتاب، ما تركت كتابًا نسخته إلا وتعلمت منه شيئًا، وكان أبي يحفزني لذلك، ثم لم يكتف بذلك بل جعل أخوالي في قرطبة، يعلمونني فنون الحرب والقتال فهم رجال حرب، فأتقنت الضرب بالسيف والطعن بالرمح والصد بالدرع والرمي بالسهم، حتى شهد من علموني بكفاءتي وحسن قتالي.

- ولم عدت إلى شنتمرية؟

- حين مرض أبي عدت إلى هنا كي أكون بجانبه، فلما توفي أبي عقدت العزم على أن أخذ أمي وأخوتي ونرحل إلى قرطبة مرة أخرى، لكن حينما دعاني مولاي الملك وأمَّرني ديوان الكتابة خلفًا لأبي لم أكن لأرد طلبه، فأفضاله علينا كثيرة.

- أدهشني سرعة ثقة الملك فيك وحب ابنه لك وإقباله على العلم.

- هو فضل من الله، فالله إذا أحب عبدًا زرع في قلوب الناس حبه.

- وهل لديك من العلم والفطنة ما يجعلك جديرًا لأن تكون معلمًا لي؟

ابتسم قائلًا:

- على الرحب والسعة.

قالت وهي تغادر:

- حسنًا، سأستأذن الملك في ذلك حين يعود.

في الموعد جاء الجيش المنتصر، واستقبله الناس بالهتاف والتهليل، حياهم الملك وشكر لهم ثم وقف في ساحة القصر يخطب فيهم ويقص عليهم أهوال الحرب وبطولات الجنود، وأخبرهم بأمر القصر الملكي في تيروال والتي ستكون بمثابة

العاصمة الثانية للمملكة، ثم أنهى الحديث وأمر بذبح الذبائح وإعداد الموائد وتوزيع المغانم على الناس، ودخل إلى القصر فوجد في استقباله جنود القصر والجواري والغلمان تتقدمهم زوجته وولده وأخته صفية وابنة أخيه الأميرة، قابلهم بلهفة وشوق واحتضن ولده الصغير وأطال العناق، ثم عانق ابنة أخيه وأخبرها بتأخر أبيها بعض الوقت لإنجاز بعض الأعمال، ثم سلم على ابن الكاتب وابن جهور وقال:

- يا ابن جهور، سوف أخلد للراحة الآن وفي المساء تأتيني لتخبرني أحوال القصر في أيام الحرب.

دخل إلى القصر ومعه زوجته وابنه عبد الله ثم قال:

- أخبرني كيف حالك يا ولدي وحال دروس العلم؟

- الحمد لله يا أبي، لقد تعلمت ثلاثة كتب ووعيت ما فيها.

- بارك الله في ابن الكاتب.

- نعم يا أبت إنه أفضل من المعلمين الذين كنت تجلبهم من قرطبة وإشبيلية، فلا هو بالفظ ولا بالغليظ، صبور يجيد الاستماع ولا يمل السؤال ولا ينتقل إلى صفحة تالية دون إجادة السابقة، أفهم ما يقول بغير جهد أو عناء، فهو حسن الأسلوب قوي الحجة واسع العلم بليغ القول، أتدري يا أبت إنه بارع في الطب أيضًا، فقد أنقذ رقية ابنة عمي من الموت.

- ماذا تقول؟! عن أي موت تتحدث؟

- لقد مرضت ابنه عمي حتى كادت تموت، ولم ينقذها سوى ابن الكاتب.

نظر لزوجته قائلًا:

- ماذا جرى يا حُسن؟

أجابت الزوجة باضطراب:

- مرضت رقية مرضًا شديدًا وقيل إنها تسممت، ولم يكن في المدينة أي طبيب نستدعيه فجاء ابن الكاتب وأنقذها.

استشاط غضبًا وطلب من زوجته وولده أن يسبقاه إلى غرفته، ثم أمر باستدعاء رقية وابن جهور وابن الكاتب والحراس والطهاة.

ما هي إلا دقائق معدودة وكان الجميع بين يديه.
نظر إلى رقية وقال بلهجة حازمة:
- يا رقية أحقًا ما قيل أنك تسممت؟
- أجل يا مولاي.
نظر إلى ابن الكاتب وابن جهور قائلًا:
- ولم تركتكما هنا، أليس لتأمين القصر وأهل البيت، كيف يدخل إلى الأميرة طعام مسموم؟ أين كان الحراس؟ وكيف غفل الطهاة؟ إن عقابي سيكون أليمًا لكم جميعًا، أما أنتما فجزاء الضعف.
-قالت رقية:
- لا داعِ للعقاب يا مولاي، فالحراس والطهاة لم يذنبوا في شيء، فالخطأ خطأي ولا تزو وازرة وزر أخرى، أما هذان الرجلان فيستحقان الثواب لا العقاب، فقد أنقذا حياتي.
- احكي لي ما حدث.
نظرت للرجال الواقفين، ففهم مقصدها وأشار للجميع بالانصراف.
قالت:
- لقد شربت السم بنفسي.
تغير وجه الملك وبدت عليه أمارات الدهشة والضيق وقال:
- وما الذي حملك على هذا؟
- لا يهم الآن، فقد أخبرني الطبيب أني ما زلت أحتاج للراحة والاستشفاء.
- تقصدين ابن الكاتب؟
- أجل.
أمر بادخال ابن الكاتب وسأله:
- كيف حال الأميرة الآن يا ابن الكاتب.
- لقد تحسنت كثيرًا يا مولاي، لكنها ما زالت تحتاج إلى الراحة والتزام الفراش.
- وعرسها الذي نعد له؟!
- لن تقوى على ذلك الآن يا سيدي، فالسم قد تغلغل في جسدها وإخراجه قد

يحتاج مزيدًا من الوقت.
سكت برهة ثم قال:
- وما الذي يحمل عروسًا على فعل ذلك الأمر إلا إذا كانت،إلا إذا كانت لا تبغي الزواج، أحقًا أردت قتل نفسك حتى لا تتزوجي؟
- أكمل يا مولاي، تقصد حتى لا أتزوج الوليد.
- ألم ننته من هذا الأمر من قبل؟
- وعدتك أن أفكر في الأمر، لكن لم يخطر ببالي أن يُفرض على موعد الزواج دون علمى، أعرف من المنادي شأني شأن عامة الناس، أُساق مثل الجواري إلى زوج لا أريده، أخبرني يا مولاي أي قيمة لحياة الملوك وزهو الإمارة وزخرفة القصور إن كنا في زي الملوك وبين جدران القصور لسنا أحرارًا ولا نملك اختيارًا، ما الفرق إذن بيننا وبين العبيد والجواري؟ أنا لا أعصي أمرك يا مولاي فأنت أبي وسيدي ولكن القلوب كما تعلم لا سلطان لنا عليها، وما دق قلبي يومًا للوليد ولا أظنه يفعل، فلِم أظلمه وأظلم نفسي بحب زائف أجوف مزين بزينة الأمراء وعباءة المُلك؟
أطرق الملك وأمسك لحيته بيده وفكر قليلًا ثم نظر إلى ابن الكاتب وقال:
- وأنت ما قولك في الأمر يا كاتب القصر؟
- لا قول بعد قول مولاي.
- أريد أن أسمع منك كما كنت أسمع من أبيك.
- يا سيدي الزواج بلا حب هو حكم أبدي على القلب بالحبس بين جدران اللا منطق واللا معقول، فلا العقل ولا المنطق يقولان أن تسلم قلبك لشخص لا يميل إليه ثم تجبره على القبول والاستكانة فيعيش متأرجحًا بين الخوف والرجاء، إما الخوف من أن يميل إلى حيث لا يرغب، أو الرجاء في أن يتحرر من القيد يومًا ما، فيحلق في الآفاق حيث لا قيود لزمان ولا مكان، يطير ويعلو ينظر في علوه إلى الأيك(٢) نظرة المشتاق، ثم يختار أكثرها أمانًا فيطمئن إليها ويهبط فوقها

---

(١) دله: عشق.

(٢) الأيك: الشجر.

ليبني عشه الهانئ، فلم يا سيدي من البداية لا نطلق العنان لقلوبنا لتحلق حيثما شاءت وتسمو قدر ما استطاعت ثم تهبط لتسكن أينما تطمئن وتهنأ، سيدي إن أنجح الأشياء هي تلك التي يسبق العقل فيها القلب، إلا الزواج فهو ينجح حينما يتلازم القلب والعقل، والعقل يقول أن الأمير يتزوج الأميرة حتى وإن كانت مرغمة، فهما من نسل الملوك ومن دار الحكم والحب بعد ذلك آت آت، لكن القلب إذا دَلِه(١) فالحب لديه منزه عن مقاييس البشر، عن قواميس الملوك، عن نواميس الكون،

فلنفسح المجال لقلوبنا تدق أولًا ثم نطلق العنان لعقولنا لتزكي وتبارك أو ترفض وتمانع، سيدي لقد سألتني عن رأيي وأنا أرى أن قرار الزواج هذا كلكم عنه مسؤول، فجلالتكم عليكم أن تتركوا الأمر للأميرة كي تفكر وتزن الأمر، ومولاتي الأميرة عليها أن تفسح المجال لخيالها الحالم، فترى إن قُدر لها أن تكون زوجة للأمير هل بإمكانها إسعاده ورعياته والإخلاص له وإسعاد نفسها به؟ والأمير مطالب بأن يتقرب من الأميرة وأن يبرهن لها على أنها لا تستحق سواه، وأن يقدم لها ما يثبت حبه وصدق نيته.

سيدي لقد أنهيت كلامي والأمر إليك.

رمقته الأميرة بنظرة إعجاب لا حد لها، وسكت الملك لا يعرف بم يجيب ثم قال:

- لقد أسهبت(١) وجئتنا بسلطان مبين يا ابن الكاتب، وذكرتني بأبيك حين كنت أستشيره فيما يختلط عليَّ من الأمور، حسنًا سآمر أن ينادى في الناس بتأجيل الزواج ولنا حديث آخر.

ثم أمرهما بالانصراف وقام إلى غرفته ليستريح.

في خروجهما وقعت عيناه في عينيها فأحس منها بنظرة حانية كأنما أرادت أن تمتن له على مساعدته إياها، وأحست منه بنظرة شغوف كأنما يقول لها لم ينطق لساني وإنما نطق قلبي.

---

(١) الإسهاب: الإطالة في الكلام

في غرفتها كانت صفية تستشيط غضبًا؛ فأيقظت زوجها وأرسلت إلى ولدها فجاء على عجل، وقال:
- ما الخطب يا أماه؟ لماذا أرسلت إليَ؟ ألا تعلمين أني أحتاج للراحة بعد مشقة السفر والحرب؟ وأريد الاغتسال والتطيب والاستعداد للعرس.
- عن أي عرس تتحدث يا وليد؟ فقد أجل أخي الحاكم العرس وأرسل إلينا بذلك، وأمر المنادي أن ينادي بتأجيل العرس.
- ولِم فعل هذا؟
- يقول بسبب مرض رقية، فقد مرضت منذ أيام وكادت تموت حتى جاء ابن الكاتب وداواها وقال إنها كانت مسمومة وأمر أن تستريح حتى تستشفي، ونصح بتأخير أمر الزواج ولا بد أن أخي الحاكم قد استجاب له.
قطع حديثهم صوت المنادي ينادي في الناس يدعوهم للاحتفال بالنصر ليلًا في ساحة القصر، ويعلمهم بتأجيل زواج الأميرة بسبب المرض.
قال الوزير:
- هل يرانا أخوك دمى يلهو بها كيفما يشاء، يعلن الزواج ثم يلغي الزواج، ألست وزيره، لم لا يشاورني في الأمر.
- لا أدري يا أبا الوليد، لم أشعر أن أخي الحاكم غير متحمس لأمر الزواج هذا، ولا أدري ما يدور بخاطره.
- ولم لا يريد الزواج؟
- لا أدري فيبدو أن هناك لعبة يلعبها مع رقية، وإني لأشك في أمر مرضها هذا.
قال الوليد غاضبًا:
- ومن يكون ابن الكاتب هذا حتى يأمر وينهي ويطبب المريض ويؤجل الزواج، فما هو إلا أحد عمال هذا القصر وخدامه.
قالت صفية بلهجة يملؤها الغيظ:
- ما أن انتهينا من أبيه حتى جاء به الحاكم إلى القصر، فهو ثعلب ماكر مثل أبيه يعرف من أين تؤكل الكتف، وله حيلٌ يدخل بها على الملك فيمتلكه ويسيطر عليه، ومنذ جاء إلى القصر ونفسي لا تطمئن إليه، وقد رأيت منه ما

رابني في أيام غيابكما.
- بشأن ماذا؟
- لا شيء يا ولدي فربما هي وساوس الشيطان، ربما ما كان بينهما إلا ما يكون من حديث الطبيب مع مريضته.
- إن كان حقًا ما تقولين يا أماه، فسوف يكون لي شأن آخر.
ثم طلب من أمه أن تستدعي الجارية سُليمى.
قالت:
- لِم يا ولدي؟
- سترين.
جاءت سليمى فقال لها بلهجة حادة:
- اسمعي يا سليمى، أريد عينيك الجميلتين هاتين ألا تفارقا سيدتك رقية صباح ولا مساء، وتخبريني بكل همسة وكل نفس وكل حركة لها، وإياك أن تغيب عنك لحظة.
ثم أخرج صرة صغيرة من الدنانير وألقاها إليها ثم همس في أذنها قائلًا:
- أما مكافأتك الكبرى فستكون ليلًا بعدما تنام سيدتك، سأنتظرك.
تهللت الجارية فكانت عاشقة لسيدها وكان على علم بذلك وكان يحسن استغلال ذلك جيدًا، فلما رأت منه الوصل وطيب المعاملة أخبرته بما كان من أمر الأميرة وابن الكاتب وبعضًا مما دار بينهما من حديث عند النهر وعند حوض الزهور، وما كان من أمر الوردة.
فاستشاط غضبًا ونفرت عروقه وبدا الشر في عينيه.
احتنضت والدها بلهفة وأخذت تبكي وقالت:
- حمدًا لله على سلامتك يا أبت.
- سلمك الله يا بنيتي، كيف حال أخوتك وزوجة أبيك.
- بخير يا أبي نحمد الله.
- عذرًا يا صغيرتي على تأخيري هذا، فقد كنت أدبر أمر الجنود وأقسم المغانم وآمر بدفن الموتى ومعالجة الجرحى، وعندما سمعت أمر تأجيل العرس وعرفت

أنه بسبب مرضك جئت على عجل.
- أنا بخير يا أبي وكل شيء يهون ما دمت بخير.
- سوف أجلب إليك أمهر أطباء الأندلس من قرطبة وإشبيلية وقشتالة.
- لا داعِ يا قائد الجيش، فقد تحسن حالي وعادت إليّ روحي لما رأيتك.
احتضنها بقوة وقال:
- صغيرتي الحسناء أحبك كثيرًا.
- وأنا أحبك كثيرًا يا أبي.
- لا بد أن اطمئن عليك يا بنيتي قبل أن أغيب ثانية.
- هل ستغيب ثانية يا أبي؟
- أجل يا بنيتي فبعد أيام قليلة سأرحل إلى تيروال في غرب البلاد ثانيةً؛ كي أجهز جيشًا وأبني عاصمة أخرى لمملكتنا السعيدة.
- أما آن الأوان لتستريح قليلًا يا أبي من أمور الجيش هذه.
- لا أستطيع يا صغيرتي، فعمك الملك لا يوكل أمر الجيش إلا لأحد من آل بيته، ولا أستطيع أن أخيب ثقته بي.
قالت وهي تطبع على خده قبلة رقيقة:
- حسنًا يا أبت افعل ما شئت، فأنا في كل الأحوال أحبك.
في المساء كانت ساحة القصر قد تزينت والأرض قد فُرشت والموائد قد أعدت والمنشدات قد جئن، وحضر العازفون واجتمع الناس وجاء المهنئون من كل حدب وصوب، وجلس الملك على عرش أنيق في شرفة صغيرة تطل على ساحة القصر لا تعلو عن الأرض إلا قليلًا، وأمام شرفة الملك قد نصبت منصة جلس عليها حاشيته وأمراؤه وأمامهم العازفون والمنشدون، ثم جاء الفرسان وأقاموا عرضًا عسكريًا محتفلين بالنصر، وتبارز الجنود مستعرضين قوتهم ومهارتهم، ثم كرَّم الملك من أبلوا في الحرب بلاءً حسنًا، ثم وقف خاطبًا في الناس فبدأ مترحمًا على القتلى ووعد بكفالة ذويهم، ثم دعا للجرحى ووعد برعايتهم وتطبيب جراحهم، وشكر للقادة والأمراء حسن تخطيطهم وقيادتهم، وشكر الجنود على حسن قتالهم وامتدح جهدهم في التدريب وبراعتهم في القتال،

ووعدهم بالأعطيات والهدايا، وشكر لأهل المدينة جَلدهم والتزامهم وحسن ولائهم، ووعدهم جميعًا أن يصيبهم جميعًا شيء من المغانم، وما أن انتهى من خطبته حتى أمر الجواري والعبيد أن يحضروا الطعام، امتلأ فضاء القصر بالأفراح والزينات والعزف والغناء وعطر الزهم(١) أجواء المكان، الجميع في فرح يرددون الغناء مع المنشدين ويصفقون ويهللون يأكلون ويشربون ويتبادلون التهاني، إلا واحد لم يكن يأبه لكل هذا، لم يشغله كل ذلك عن شغله الشاغل، كان يختلس بين الفينة(٢) والفينة نظرة يلقيها على شرفتها عله يراها، كان يرد تحية المحيين كأنه لا يراهم ويوزع الابتسامات الباهتة غير مكترث لما يقال، كان مع الناس بجسده لكن قلبه كان يحلق حول نوافذ القصر وشرفاته؛ عله يجد ما يبحث عنه ثم شخص بصره وجف حلقه.

واختنق شهيقه واحترق زفيره وتسارعت دقات قلبه حين لمح طيفها، نعم إنها هي واقفة كدرة العقد الثمين وسط جواريها ووصيفاتها، كالقمر بين النجوم، كالوردة وسط الأغصان يعاود النظر إليها ثم يصرف نظره عنها محاولًا تجنب أعين الناظرين، وكانت هي في الأعلى تجول ببصرها يمينًا ويسارًا، تقلب في الوجوه وتبحث عنه حتى خفق قلبها بلطف وتسارعت أنفاسها بخجل حين رأت عينه ترمقها فالتقت العين بالعين وجرى بين العيون حديث بغير كلام ووصل رغم التنائي(٣)، طال النظر وكأن القلوب تتحاكى والأرواح تتعانق، كان صوت الغناء والمعازف يتردد

أيها السـائل عن جُرمـي لديـــه
لي جزاء الذنب وهو المذنــبُ
أخذت شمس الضحى من وجنتيه
مَشرقًا للشمــس فـيه مغــرب
ذهب الدمع بأشواقــي إليه

---

(١) الزهم: رائحة الشحم والشواء.
(٢) الفينة: القليل من الوقت.
(٣) التنائي: التباعد.

وله خدٌ بلحظـــي مُذهَـــــبُ
ينبـِتُ الوردُ بلحظـــي كلمـــا
لاحظـته مقلتـــي في الخُلـَس
ليت شعري، أيّ شـيء حرّمـا
ذلك الـوردَ عـلى المغـترس(١)

(كان صوت المعازف يضارع صوت دقات قلبيهما، وكان الغناء لهما كالغيث هبط على قلبيهما فلانت وانشقت ونبت الحُب منها، في تلك اللحظة تيقن كلاهما أنه يحب الآخر، نعم إنه هو الحب تلك الزهرة التي تنبت وسط غابات الخوف، فالخوف من الحب هو الحب نفسه، وحديث العيون هو أفصح لغة بين المحبين، واختلاس النظر إلى المحبوب هو أشهى شقاء، وسارق النظر إلى معشوقه هو أبرأ لص، وبينما هو ينظر إليها وتنظر إليه لمحه زمزم فأقبل عليه وفي يده قطع اللحم يلتهمها بشراهة فمال عليه وهمس في أذنه:

- لا تنظر لأعلى يا صديقي.
- أنا أتأمل جمال القمر وسحر النجوم.
- النظر إلى الأقمار والشموس يضر العيون.
- وما قيمة العيون إن لم تر نور الشمس وتستمتع بسحر القمر وجمال النجوم يا زمزم.
- الشمس بعيدة والقمر عال والنجوم صعبة المنال يا صاحبي.
- لكن الأحلام سهلة فلم لا نصبر أنفسنا بالتمني؟
- أتحبها حقا يا محمد؟
- النجوم؟

ابتسم زمزم وقال:

- لا تراوغ يا كاتب القصر فالصب تفضحه عيناه، فأنا أقصد الأميرة، أراك منذ أيام شارد الذهن كثير العزلة دائم الوجوم قليل الكلام، استيقظ من أحلامك يا

---

١) من الموشحات الأندلسية لإبراهيم بن سهل الأندلسي، وهو من أشهر شعراء إشبيلية ووشاحها.

محمد، وكف عن ذنبك هذا.
- أترى الأحلام ذنبًا يا صاحبي؟
أجاب زمزم وهو يلتهم قطعة اللحم التي في يده قائلًا:
- يرونها هم يا محمد.
- لكني حقا أحبها.
وضع يده على فم ابن الكاتب وقال:
- اصمت، أمجنون أنت حتى تهذي بمثل هذا الكلام؟ فلو سمعك أحد من آل البيت لكان في الأمر قضاؤك.
مسح ابن الكاتب شحمًا ودهنًا أصاب وجهه من يد زمزم وقال:
- لا يهم موتي إن كان أجلها.
- ألا تخشى الموت؟ إذن أذهب فأشي بك عند الملك وبذلك أكون قد أخذت ثأري منك، أم نسيت؟
ضحك ابن الكاتب وقال:
- ويل للشجيِّ من الخليِّ (١) يا زمزم، يا لسواد قلبك يا رجل.
- لست خليًا يا صاحبي بل أنا صبٌ (٢) مثلك.
- ومن تكون تلك التي حازت قلب زمزم الأبيض الطيب.
- لم يذهب قلبي بعيدًا فقلبي وقلبك يحبان من نفس الغرفة، امرأتين تقفا في نفس الشرفة.
- من؟ فجر أم سليمى؟
- سليمى يا صاحبي.
- إنها حقًا جميلة فهل صرحت لها بحبك؟

---

(١) ويل للشجي من الخلي: مثل كان يضربه العرب لسوء مشاركة الرجل لصاحبه والشجي هو صاحب الهم، أما الخلي فهو الخالي من الهموم، أي ويل لصاحب الهم حين يشكو همه لمن لا يشعر به.
(٢) صب: عاشق.

- أجل صرحتُ مرارًا ولكنها دائمًا ما كانت تصدني.
- لعلها خائفة من أسياد القصر، فاجعل السيدة أم زمزم وسيطًا بينكما.
- أمي لا تحبها وتصفها بأنها لعوب، ونصحتني بالابتعاد عنها ورفضت الوساطة بيننا وأخبرتني بأنها عاشقة للأمير الوليد.
- فحاول أن تنساها يا زمزم فذاك عذاب أشفق عليك منه يا صاح.
- لا أستطيع يا محمد، فلو تستطيع أنت أن ترجع عن حبك لرقية لرجعت أنا عن حبي لسليمى.
- إذن فكلانا معذبان، كلانا نتجرع من نفس الكأس يا زمزم.
ثم أحس ابن الكاتب بما وقر في قلبيهما من الحزن والهم، فقال مداعبًا زمزم ومحاولًا الخروج من الهم والضيق:
- ثم هي محقة سليمى تلك يا زمزم، فكيف لامرأة أن تحب قلبًا ملأه الثريد(١)، ألا ترى نفسك وقطع اللحم في يديك والشحم يقطر من بين أصابعك ويكسو وجهك الصبوح؟
ضحك زمزم وقام يضرب ابن الكاتب ويمسح يده على وجهه ليصيبه من الشحم والدهن.
ظلا يمزحان ويضحكان ثم تغيرت ملامح ابن الكاتب حين رأى الأميرة تغلق شرفتها وتدخل فقال:
- أرأيت لقد دخلت لما رأت جنونك يا هادم اللذات ومفرق الجماعات أنت.
ثم جلسا يتسامران ويتضاحكان حتى انتهى الحفل وقام كل إلى مخدعه.
في تلك الليلة لم يزر النوم جفنيه، كانت الحيرة تعبث بقلبه الحزين، أخذ يحدث نفسه أحقًا كانت تنظر إليه؟ أحقًا التقت عيناه بعينيها؟ أم أنه من المألوف في ليلة بهيجة كهذه تقام فيها الأفراح وتتزاحم فيها الأنظار أن تلتقي العين بالعين، أحقًا كانت تبادله النظرة بالنظرة؟ أم أن شغفه بها جعله يفكر بعين

---

(١) الثريد: طعام من خبز مفتوت ولحم ومرق، وهي أكلة مشهورة عبر تاريخ العرب، وتسمى في مصر فتّة.

التمني فتتمنى نفسه ما لا يكون ولا يعقل، وحتى إن كانت تبادله النظرات وحتى إن كانت بالفعل تحبه، فإلام يؤول هذا الحب وبينه وبينها ألف جدار وجدار؟ فالحواجز عالية والقيود محكمة والأبواب موصدة والمسافات بعيدة، أحس باختناق أنفاسه وجف حلقه وتسارع نبضه وتحجرت الدموع في مقلتيه، فهرع إلى نافذة غرفته ليفتحها ملتمسًا بعضًا من الهواء العليل، أطرق بعينيه للسماء فلمح البدر يتلألأ في كبد السماء فانطلقت من صدره زفرات حارة وتأوهات ملتهبة، أطال النظر للبدر يشكو له عله يواسيه، فأحس كأنما رق لحاله الجديات(١) والثريا(٢)، جال بنظره فلفت انتباهه طائر صغير قد نشب أظفاره في فنن(٣) يطل على شرفته وإلى جانبه أليفته وقد تلاحم جسداهما، فكأنه بريشه الناعم يحجب عنها بعضًا من نسمات الليل الباردة، لم يجد نفسه إلا والدموع تنساب من عينيه، فكم تمنى لحظتها لو كانت الحياة ملكه وحده فيأمرها أن تبقي حبيبته إلى جانبه، أو كان القدر بيده كي يجعل قدرها قدره، أو كان الأمر بيده فيهرع إليها غير آبه ليقول لها بأعلى صوته نعم أنا أحبك، نعم أنت لي رغم الحواجز

والقيود، أنت لي رغم الوجود بأسره، سكنت أنفاسه وهجعت دموعه فاستفاق قليلًا وحمد الله الذي جعل الحب بأمره كي يبقيها حبه للأبد.

أطال النظر لهذين الطائرين، وتعجب من هذا السكون المخيف، وأخذ يحدث نفسه، كيف للعيون أن تنام؟ من أين أتتهم كل هذه السكينة؟ وكيف لانت الأرض تحت جنوبهم؟ ثم عاد بنظره للطائرين ظل يراقبهما إلى أن غادرا الفنن إلى داخل وكرهما، فغادر النافذة إلى داخل غرفته، وأسلم جنبه إلى مضجعه، يتوسل النوم أن يطرف عينه كي يريحه من عذاب الذكريات ولوعة الأشواق، لكن هيهات للنوم أن يطرف عينًا تجمعت بداخلها الذكريات والأحزان، ثم وضع كفيه على عينيه يكفكف بعض دموعه وقال هاذيًا:

---

(١) الجديات: جمع جُديّ وهو نجم قطبي تعرف به القِبلة.

(٢) الثريا: مجموعة نجوم في السماء تأخذ شكل الثور.

(٣) فنن: فرع شجرة.

عجبًا لتلك المقل كيف اشتهت السهر، وهي التي كنت أقاسي كي أطير النوم عنها لأنهي كتابًا أقرأه أو رقعة أنسخها؟ وكيف هانت عليها عبراتها وقد كنت من قبل أعتصرها لأغسل بدموعها عفرات الزمن.

ثم ضرب قبضة يده على موضع قلبه ثلاثًا وقال :

وعجبًا لذاك القلب! فما الذي أصاب شغافه(١)، ومن أين له كل هذا الضعف وهو الذي ما لان أبدًا وما استكان؟ رباه ما كل هذا؟ ما أسميه؟ أهو الحب؟ فوالله ما هو إلا الحب بكامل معانيه وأسمى صوره.

ظل على تلك الحال يهذي ويبكي حتى انتبه إلى صوت المؤذن ينادي لصلاة الفجر، فقام إلى الصلاة والدعاء فما حيلة المشتاق إلا الدعاء.

كانت في غرفتها قد كحل السهاد عينيها(٢)، كانت تتوسل النوم أن يطرق باب جفنيها، أخذت تحدث نفسها، أحقًا كان ينظر إليها ويبادلها النظرة بالنظرة؟ أم أنها أصابتها منه نظرة كنظرة العوام للأمراء والأميرات، فكل العيون كانت تراقبها وكل الأنظار تتطلع إليها في مثل تلك الليلة السعيدة، فربما ولعها به جعلها تتخيل ألا عين تنظر إليها سواه وألا وجود سواهما، عينان تتحادثان على صوت المعازف والألحان، حب يرفرف بجناحيه في فضاء القصر، شوق يلهب ما في حنايا الصدور ويزكي مجامع الضغائن(٣) وينقيها، ثم أخذت تحدث نفسها، حتى وإن كان يحبها، هل سيجرؤان على البوح بذاك الحب؟ هل سيقفان أمام الأعراف والقيود والمظاهر الملكية الخادعة، أم سيخافان لومة اللائمين وغضبة الرافضين؟ فما أشق على القلوب من أن يجمعها الحب ويفرقها الخوف، وما أقسى على النفوس من أن تجاهد باسم الحب في أرض لا تقيم للحب وزنًا، وما أصعب على المحبين من أن يجرفهم تيار الأعراف والقيود فيعصف بمكنون قلوبهم، وما أبغى على العقول من أن يوصف الحب الذي اختارته بالجنون، وحتى إن قيل أن حبهما جنون، فالجنون هو أعقل ما في الحب، ثم أخذت

---

(١) شغاف القلب: سويداؤه وحبته.

(٢) السهاد: السهر، وكحل السهاد عينيها أي فارقها النوم ولازمها السهر.

(٣) مجمع الضغائن: كان العرب يستخدمون تلك الجملة كناية عن القلب.

تهذي وتقول وهي تدور حول فراشها:
- رباه ماذا دهاني حتى أصبحت نفسي تعاف(٣) وثيري(٤) ووسادي هكذا، ليتك يا ابن الكاتب ما كنت أنقذتني، ليتك تركت السم يتغلغل في أحشائي، أما كنت تتركني أموت؟ ففراق الحياة أهون من فراقك حية.
حقًا إن من يعاني لوعة الفراق وعذاب الاشتياق يدري كم هو الموت حنون، ليتك تركتني ليلتها أفارق الحياة، فما قيمة الحياة بغير حب، ما قيمة الحياة حين نمضيها في وجد ووصب(١)؟ ما قيمة الحياة حين تنطفئ شمسها أو يأفل(٢) قمرها لتتركنا نهيم فيها على وجوهنا نتخبط حيثما تتقاذفنا الأهواء، وما الحيلة وقد نفذ الصبر وجزع القلب وجفت الدموع وتقرحت المآقي(٣) وما العمل وقد زاد التوق(٤) عن الطوق(٥) واستحال(٦) الحنين إلى أنين؟
ثم نهضت من فراشها ووقفت أمام مرآتها ونظرت إلى وجهها وأكملت هذيانها، وما قيمة الجمال إن كان في الوجه أفول وفي القلب ذبول؟ ثم التفتت إلى ملابسها المعلقة وقالت:
- وما قيمة تلك الملابس الفاخرة الأنيقة على أجساد بالية ونفوس حزينة؟
ثم أمسكت تحفها الثمينة ودررها الغالية وهداياها القيمة وألقتها على الأرض وألقت ملابسها وأخذت تطؤها بقدميها وهي تبكي وتقول:
- ما قيمة كل هذا إن كان سبب شقائي وسر تعاستي؟
ثم استلقت على فراشها وأجهشت في بكاء عميق ودموع هادرة، ولم ينتشلها من بحر الدموع إلا صوت المؤذن ينادي لصلاة الفجر، فقامت إلى الصلاة والدعاء، فما حيلة المشتاق إلا الدعاء.

---

(١) الوصب: شدة الحب إذا خالطه هم وحزن.

(٢) يأفل: يغيب ويختفي.

(٣) المآقي: مجاري الدمع في العيون، ومفردها مأق.

(٤) التوق: الشوق.

(٥) الطوق: القدرة والطاقة.

(٦) استحال: تحول.

في جناحه الفاخر كان يختص غرفة يختلي بها بنفسه ويقابل فيها ندمائه وخواصه يلهون ويسكرون، دخل إلى تلك الغرفة بعد أن اطمأن إلى نوم زوجته وأبنائه وأرسل في طلب سليمى، فجاءته على عجل متزينة.
كان يجلس على أريكة وأمامه أقداح الخمر وقطع اللحم الطازج وما لذ من الفاكهة والحلوى، قال لها:
- هل نامت سيدتك؟
- أجل يا سيدي، لقد أوصدت بابها وأمرتنا أن نخلد إلى فُرشنا.
- وهل من جديد؟
- لو رأيت شيئًا لقلت لسيدي قبل أن يسألني.
قال لها وهو يحتسي قدح النبيذ:
- اقتربي يا سليمى وتجرعي من نبيذي الخاص، فلا أهديه إلا لأحبائي.
اقتربت منه وهي تقول في دلال:
- أحقًا أنا من أحبائك يا سيدي؟
- أجل، ما دمت تسمعين وتطيعين.
- طوع بنانك يا سيدي وملك يديك، أينما توجهني أذهب وحيثما تستدعيني آتي.
- على قدر ولائك وطاعتك سيكون وصلي بك يا امرأة.
- ليت الوصل يدوم يا سيدي، فمن كانت لها رجل مثلك تستغني به عن العالمين . أطلق ضحكات عالية وقال:
- ومن كان له جارية مثلك يشتهي نساء العالمين.
ثم أمضيا ليلتهما في سُكر وسفور.
كانت شمس الصباح تزين السماء الصافية بعد ليلة سعيدة، وكان من عادة الوليد أن يستيقظ مبكرًا ليمر على مواضع الحراسة ويتابع جنوده، لكنه في تلك الليلة تأخر بعض الشي بعد طول السهر، وكان من العادة أن يرافقه ابن جهور قائد حراس الملك في جولته حول القصر، وكان الوليد شديد الكره لابن جهور بسبب قربه من الملك، فقد كان يمقت كل من كانت له حظوة عند الملك،

بل كان يصطفي من رجال القصر من كان ولاؤه له هو أولًا، فكان يدني منه جنديًا يدعى عباد؛ رأى فيه القوة وتوسم فيه الولاء، فعينه قائدًا للعسس الليلي واتخذه نائبًا له في مواضع كثيرة، وجعله عينًا له في غيابه، لما رأى ابن جهور الوليد قادمًا هم ليرافقه كالعادة فرفض، وأمره أن يظل قريبًا من الملك، ثم نادى على عباد وسارا يتحادثان، قال الوليد:

- أخبرني يا عباد، ماذا حدث في غيابي؟

مضى عباد يحكي عن الجنود والعسس، واستطرد يقص على الوليد كل ما جرى منذ أن غادر القصر، قاطعه الوليد قائلًا:

- وماذا جرى في القصر؟

- مضى يحكي عن القصر والجنود وعن ابن جهور وعن صداقته بابن الكاتب، وعن مجلس العلم بين ابن الكاتب وعبد الله ولد الملك، حتى بلغ مرض الأميرة.

- أخبرني ما حدث تفصيلًا يا عباد.

حكى له ما كان من مرضها وما كان من أمر ابن الكاتب في مداواتها، ثم أخبره أنه رأى الأميرة تنضم إلى مجلس العلم بين عبد الله وابن الكاتب أكثر من مرة.

- هل كان يجري بينهما حديث؟

- من ومن يا سيدي؟

- الأميرة والكاتب يا غبي.

- أجل يا سيدي.

- فيم دار الحديث؟

- لا أعلم يا سيدي.

جرض الوليد عليه ريقه(١) وأكمل سيره في اتجاه مجلس الملك واستأذن في الدخول، وكان الملك جالسًا وإلى جواره وزيره ابن يحيى فأذن للوليد بالدخول؛ فدخل وملامح الغضب بادية في وجهه، قال:

- مولاي هلى تسمح لي أن أسال عن سبب تأجيل زواجي من ابنة خالي؟

أجاب الملك بشيء من الغضب:

- تلك الأمور لا تناقش في مجلس الحكم يا قائد الشرطة.

- عذرًا يا مولاي، ولكني أحببت أن أسأل عن شيء يخص أهل الحكم أيضًا.
- حسنًا، ألم تعلم أن ابنة خالك مريضة؟
- كانت مريضة وقد تم شفاؤها.
- لم يتم بعد لقد أخبرنا الطبيب بذلك.
- أي طبيب يا مولاي أعزك الله، الكاتب؟ وهل ابن الكاتب طبيب حتى يفتي بغير علم، لا أدري يا سيدي لم كل هذه الثقة في هذا الرجل؟ ولم تدني منا خدامنا؟ إني أستأذن ملك البلاد في إحضار أطباء المملكة لمداواة ابنة خالي والفصل فيما فعله الكاتب هذا.

أمر الملك على الفور بإحضار جميع أطباء المملكة وابن الكاتب والأميرة فجاءوا في دقايق معدودة.

قال الملك:

- ما قولك في مرض الأميرة يا ابن الكاتب؟

حاول ابن الكاتب أن يستجمع قوته ويلفظ أنفاسه ثم قال:

- لقد تسممت مولاتي بعصارة نبات النبيالة السام، وقد احتفظتُ بقارورة السم التي شربت بالخطأ منها مولاتي، مد يده في حقيبة قماشية صغيرة معلقة في كتفه وأخرجها.

أمر الملك كبير الأطباء أن يتفحص قارورة السم.

أمسك بها كبير الأطباء وأطال النظر وأخذ يشم فوهتها ويتيقن منها ثم قال:

- أجل يا سيدي إنه نبات النبيالة من نباتات سرقسطة وهو شديد الفتك، لو خالط الدم يقتل في وقت قصير، لذا يستخدمه بعض الجنود هناك فيغمسون فيه سيوفهم ورماحهم، فإذا جرح السيف جسدًا تغلغل السم في الجرح فيتعفن الجرح ولا يلتئم، ويسري السم في العروق حتى يبلغ القلب ومنه إلى باقي الجسم، فيمنع اختلاط هواء الرئتين بالدم فيموت المصاب بعد عدة أيام وربما ساعات، أما في حالة مولاتي الأميرة فنحمد الله أن السم لم يصب جرحًا ولا دمًا، فدخول العصارة إلى جوف المريض يقلل من سميتها بسبب وجود عصارة المعدة

---

(١) جرض على ريقه: ابتلعه غيظًا

شديدة الحمضية، ويستوجب علينا حينها أن نفرغ المعدة ونغلسها بالماء والملح مثلما فعل ابن الكاتب.
- ما قولك الفصل في ابن الكاتب يا شيخ الأطباء؟
- طبيب ماهر يا سيدي وقد أحسن وأجاد.
- وكم تحتاج الأميرة للراحة؟
نظر في وجهها وفحص عينيها ثم استاذن الملك أن يتحسس نبضها وقال:
- ما زالت تحتاج لبضعة أيام يا سيدي من السكون التام والطعام الجيد والهواء المنعش.
نظر الملك إلى الوليد في حنق شديد وأمر الأطباء بالانصراف، ثم أطرق طويلًا وقال:
- نعتذر إليك يا ابن الكاتب فلا يسعنا إلا أن نثني عليك ونزكي صنيعك ونكرمك بالمال والعطاء، ونادى بإحضار المال.
قال ابن الكاتب:
- سبق وأن عرضت عليَّ الملكة صفية المال ورفضت، فالمال أتقاضاه على عملي ومهنتي، أما غير ذلك مما هداني الله إليه فلا آخذ فيه مالًا ولا أتقاضى عنه أجرًا.
نظر الملك ثانية للوليد وفي نظرته ألف معنى، ثم أشاح نظره عنه وقال لابن الكاتب:
- اذهب الآن يا ابن الكاتب وباشر عملك، واذهبي يا ابنتي واستريحي ولا تنهضي من فراشك.
في لحظة خروجهما من باب المجلس التقت العين بالعين ثانية وساد الوجوم برهة حتى تدفقت حمرة الخجل في خديها، فأشاحت نظرها وغادرت إلى غرفتها وغادر إلى مكتبته.
في الداخل قال الملك للوليد:
- ابن الفتح بن هشام ليس من خدامنا يا وليد، فأبوه كان صديقي ونديمي، ولولا مكانة أبيك وأمك عندي لاتخذته وزيرا لي، ولو كررت تلك الكلمة سيكون لك مني شان آخر.

هم الوليد بفتح فمه قائلًا:
- مولاي.
أشار إليه الملك بالسكوت ثم أمره بالانصراف.
زاد حب الملك لابن الكاتب وزادت ثقته فيه، ومما زاده حبًا له تعلق ولده عبد الله به وثناء كل من في القصر عليه؛ فصار يقربه من مجلسه ويتخذه نديمًا ويطلب منه كل ليلة أن يقرأ عليه من من أحاديث السابقين وتاريخ البلدان ويقص عليه من أخبار الشعر وطرائف الشعراء، فكان يعجب بواسع علمه وبليغ قوله وخفة ظله، وكان يستشيره في كثير من الأمور كما كان يفعل مع أبيه.
وكانت الأميرة قد ملت الرقود في غرفتها، فاستأذنت الملك أن يجعل لها ساعة تتنزه فيها في بستان القصر وتحضر درس العلم مع عبد الله فأذن لها، فصارت تجلس معهما كل يوم، فكان يشعر وهو معها أن قلبه طائر عاش سنين حبيسًا في قفص صغير، ثم أُطلق له العنان فجأة ليحلق في الآفاق، فكان يبدي ملامح الجد والحزم ويخفي الوجد والهيام، كان ينتظر تلك الساعة كل يوم كطفل رضيع غابت عنه أمه فصار يتحين وصولها، كان في حضورها تتضاعف همته ويزيد نشاطه ويتقد ذهنه، إذا سمع صوتها يكاد قلبه المسكين يحترق وجدًا بين جوانحه، فكانت تلك الساعة بمثابة القطر(١) يهطل على القفر(٢) فينبت زرعها وينمو على أمل هطول قطر آخر، وكانت تنتهز الفرصة لكي تراه وصارت تأنس بحديثه وترتبك عيناها كلما وقعت في عينيه، ويحمر وجهها خجلًا لو يثني عليها أو يمدح فطنتها، ثم صارت تخصص وقتًا يسيرًا كل يوم بعدما ينتهي الدرس ويغادر عبد الله تُفضي إليه بذات نفسها إفضاء الصديق إلى صديقه، وتقص عليه من ماضيها وحاضرها وتحكي له عن أيام صباها.
ونشأتها في قصر الملك ثم مرض أمها ووفاتها، فكانت لا تكتم عنه خبرًا ولا تخفي عنه أمرًا، وكانت تشعر في ذلك بسعادة غامرة، وبنشوة جارفة، حتى صارت تفكر فيه كثيرًا، ثم ترامى بها الأمر حين أصبحت تشعر بالوحشة إن تخلف عنها ولم تره يومًا، فكان حبه في قلبها يتنامى مع كل لقاء، يكبر مع الأيام.

---

(١) القطر: المطر
(٢) القفر: الصحراء

وكانت سليمى تلاحظ كل هذا وتنقله للوليد، لم يستطع الوليد أن يكظم غيظه فجن جنونه ومضى يبحث عن ابن الكاتب حتى عثر عليه جالسًا يقرأ تحت شجرة على حافة النهر فأقبل عليه في غضب قائلًا:

- أنت أيها الكاتب، أتجلس هنا وتترك عملك؟

- أي عمل أيها الأمير؟ فقد أنهيت للتو عملي في دار الكتب، فأنا لا أخرج من باب غرفة القصر إلا إذا أنهيت ما كلفني به مولاي الملك.

- وهل يكلفك مولاك بمغازلة أميرات القصر ومضاحكتهن؟

تعجب ابن الكاتب من قول الأمير فقال مستنكرًا:

- ماذا تقول؟! أي خطيئة تلك التي ترميني بها يا أمير الجند!

- أليست مغازلتك للأميرة رقية خطيئة أيها الخبيث؟!

- أنا لست خبيثًا ولم أغازل الأميرة ولا أراها إلا في دروس العلم.

- تقصد دروس اللهو واللعب.

- حاشانا أن نكون كما تقذفنا به.

- اسمع يا هذا، لقد فاحت رائحة مكرك وكُشفت نواياك الخبيثة، ولولا حظوتك عند الملك لضربت عنقك.

- بأي ذنب تستحل رقاب العباد، وبأي حق تتهم الناس في نواياهم؟!

- اسمع يا هذا، إن سمعت أنك قد اختلطت بالأميرة أو حادثتها أو حتى نظرت إليها فسوف ترى مني العذاب الأليم، وانس دروس اللهو تلك وإياك وعصيان أمري.

- اسمع أنت، سوف أجالس الأميرة وأحادثها ونكمل ما بدأناه من دروس ولن أحيد عن ذلك إلا بأمر من مولاي الحاكم.

استشاط الوليد وأحس بشيء من الإهانة، فكانت تلك هي المرة الأولى التي يجرؤ فيها أحد على تحديه وعصيانه فقال بلهجة حانقة:

- أتعصاني وتتحداني أيها الكاتب اللعين؟!

- اللعين هو الذي يستحل دماء الناس ويحتمي بسيفه ورتبته ونسبه.

استل الوليد سيفه وهم أن يضربه فوقف أمامه ثابتًا ينظر إليه بعين التحدي،

فأغمد سيفه وقال:
- سنرى يا ابن الكاتب.
عاد الوليد غاضبًا إلى جناحه واجتمع بوالديه قائلًا:
- أرأيتما ما يفعله خالي؟! يؤجل زواجي من رقية ويمنعني عنها بحجة مرضها، ثم يسمح لها أن تقابل الكاتب هذا وتحاكيه وتمازحه، لا أدري ما سر هذا الدخيل اللعين، والله لا يمنعه مني إلا الخوف من غضب الملك، وذاك إذا غضب كان غضبه خسرانًا لنا.
قال ابن يحيى:
- لقد أتممت شفاءها فاعرض الأمر على الملك مرة أخرى.
قالت صفية:
- الأمر ليس في الملك، يبدو أن رقية هي من طلبت منه تأجيل الزواج.
- ولم يا أماه؟
- اسأل نفسك يا ساحر نساء شنتمرية، إن ابنة خالك لا ترغبك، ويبدو أن أحدًا قد جاء ليحل محلك.
- جاء ليحل محلي!!
قال الوزير:
- فهمتك يا صفية، تقصدين ابن الكاتب.
- ومن غير هذا الثعلب الماكر؟! تخدم أنت وأبوك في بلاط أخي وتفنيا عمركما في القصر وتعرضا حياتكما للأهوال والحروب وتجلبون له النصر تلو النصر، فما من أحد في المملكة إلا ويتكلم عن بطولة الوليد وعن دوره في تحقيق النصر في المعركة الأخيرة وتوسيع رقعة البلاد، ثم يؤمِّر علينا العبيد والخدام، بالأمس"قُبح" هذه التي تزوجها، واليوم ابن الكاتب الذي لو زوجه رقية لضاع أملك في المُلك أبد الدهر يا وليد.
- لن أسمح بهذا ما حييت يا أماه.
قال ابن يحيى:
- وعلام تنوي يا بني؟

- سأضرب عنقه يا أبي.
قالت صفية:
- غبي.
نظرا إليها في استنكار فقالت:
- حينها ستخسر كل شيء وسيعاقبك الملك ويحرمك من رقيه وربما من المُلك أيضًا.
- ماذا أفعل إذن؟
تبسمت ابتسامة خبيثة ونظرت إليهما لبرهة ثم قالت:
- عليك أن توقع بين الكاتب هذا وخالك الحاكم، فترسل من يشي به عند الملك، فإذا رفع الملك يده عنه يصبح لك صيدًا سهلًا تفعل به ما تشاء.
- أحسنت الرأي يا أماه.
قال ابن يحيى:
- يا لك من امراة، حقًا إن كيدكن عظيم.
كان الحافظ في الغرب يكمل إعداد جيش الحدود ويتابع بناء القصر والقلعة، وكان يراسل الملك بكل جديد، فكان الملك يزكيه ويثني عليه ويزيد من همته ونشاطه ويطمئنه على أولاده، وكان يرافقه والي تيروال أبو حمزة المراكشي، ويطلعه على أحوال الولاية وأسرارها وأحوال الناس فيها، وكان يراسل الوليد ويدعوه لمرافقته هناك.
في كل مرة كان يراها في درس العلم كانت تحدثه نفسه أن يصرح لها بحبه غير مكترث للعواقب، لكن ما أن تلتقي عينه بعينها حتى يضطرب ويغلب صوت حبضه(١) على صوت فيه، فيتلعثم وتذوب الكلمات من بين شفتيه ولا يدري ما يقول، كان لا ينسى ما فعلته حين غازلها مغازلة لطيفة، فكان يخشى غضبها ورفضها ويتهيَّب عيون الوليد التي تحيط بالمكان، فكان ذلك يرده عما ينوي من التصريح بما يضمره في قلبه، لكن النزوع(٢) يكاد يأكل قلبه كما تأكل النار الهشيم، ويعتصر ما بين جوانحه حتى لج(٣) به الشوق، وكانت هي لا تقل عنه شوقًا ووجدًا(٤)، كانت تنتظر منه تصريحًا أو تلميحًا بذلك؛ عله يطفئ

لظى قلبها ويقتل الحيرة في قلبها، كان كل منهما يكتم حبه ويخشى إظهار ما في مكنون نفسه، فكان ذلك يشعل الحسرة في نفسيهما ويزيد من عذابهما، فكتمان الحب كالمرض الخبيث الذي يتمكن من سائر الجسم ثم يقتله في صمت.

خلا بنفسه ليلًا وأخذ يفكر لم لا يصرح لها بقرارة نفسه، من أي شيء يخشى؟ فأي مصير تؤول إليه الأمور سيكون أهون على نفسه من ذاك العذاب، كما أن الحب يستوجب المجازفة والمحب لا بد وأن يكون مغامرًا وشجاعًا، كما أن الحب جنون وجنون الحب هو أعقل ما فيه كذلك فإن كتمان الحب ضعف، والضعف ليس من شيم الرجال، والحب الطاهر لا عيب فيه طالما كانت النية خير، ولا يمكن لأحد أن ينكر سلطان الحب على القلوب، وبعد طول تفكير هداه قلبه أن يكتب لها رسالة يصرح لها فيها بما في قرارة نفسه، ويستشف عما تضمره في قلبها تجاهه، ويدفع الحرج عن شفتيه فيما يثقل عليها قوله لها وجهًا لوجه، فجلس إلى منضدته في مواجهة النافذة التي تبعث في الغرفة هواءً عليلًا، ثم سحب رقعة من أحد الرفوف وغمس ريشته في المحبرة وأخذ نفسًا عميقًا وبدأ يكتب:

"من قلب حائر ينبض حبًا، إلى قلب جائر لا يستشعر هواه،

لا تسائلي نفسك لم وكيف أكتب إليك هذه الكلمات، فإني أعجب من جرأتي على كتابتها وشعوري بكل حرف فيها، فبينما أجلس في تلك الليلة المقمرة في شرفة غرفتي وجدت نفسي أسحب رقعة من بين كتبي لأخط فيها تلك الكلمات، ومع كل كلمة تخطها يدي تنظر عيناي للقمر الذي امتزج في خيالي نوره بنورك ووجهه بوجهك، فأصنع من ذاك المزيج حبرًا أضعه في قارورة قلبي، فأغمس فيه قلمي وأطلق له العنان أن يكتب في وصفك ما يشاء، ويطلق هو لي العنان أن

---

(١) حبضه: صوت قلبه ونبضه.

(٢) النزوع: الشوق الشديد.

(٣) وجد: الوجد هو شدة الحب.

(٤) لج به الشوق: اشتد عليه وشق.

أتنسم عبيرك من بين السطور والكلمات، أطرقت طويلًا للنجوم وهالني لمعانها في كبد السماء، صرت أبحث عنك بينهن فلم أجدك، سألت نفسي عن السبب الذي جعل تلك النجوم تعلو في
السماء بينما أنت تسكنين الأرض برغم أنك لا تقلين عنهن تلألؤًا وجمالًا فأدركت السبب، وهو أنك حين قورنت بهن وضعت في إحدى كفتي ميزان ووضعن في الأخرى فرجحت كفتك إلى الأرض بينما طاحت كفتهن فتناثرن في السماء.
واسمحي لي أن أسترحمك، فإن تلك البارقة التي كانت تضيء ما بين جوانحي من الحب قد استحالت إلى جذوة نار مشتعلة تلهب فؤادي وتستثير أناتي وتؤرق سباتي، وما عاد قلبي يطيق، ألا تشعرين بما يملأ أركانه من مشاعر الحب، تلك المشاعر التي طالما سمعت عن بريقها وحريقها، عن لذتها ولذعتها، عن حرها وقُرها(١)، عن بهجتها ووهجتها، حتى قدر لي أن أتجرع من ذلك الكأس الذي أذهب عقلي ونقلني من حياة صاخبة فاجعة إلى حياة ساكنة هاجعة، فصرت أستشعر جمال تلك الحياة، فأرى في تمايل الأغصان رقصًا، وفي زقزقة الطيور لحنًا، وأشم في نسيم البحر عطرًا، فيطير قلبي ليعانق السحاب، وأود لو أسعفتني يداي فأحلق بهما في السماء، أو طاوعتني قدماي فأهرول بهما إلى الجداول والبحور فأبشرها بما في قلبي، وكم وددت لو ساعدني النسيم فأوصل ما بي من حب إلى كل زهرة وقطرة إلى كل كوكب ونجمة، إلى كل حديقة وبستان، إلى كل عاشق ولهان، ولا أدري لما تحمل ظلمة الليل كل هذا الحنين إليك، الآن الليل يضارعك هدوءً وسكونًا وصفاء، فصفاؤه وسكونه يتيحان لقلبي فرصة سماع همساتك التي تتساقط من عذوبتها أوراق الشجر، وتتناثر من رقتها الأنداء على الأزهار وتسيل لشدوها دموعي على خدي،
تلك المشاعر الدافئة التي جعلتني استشعر في ضوء القنديل الذي أمامي دفئًا هو أحر من شعاع الشمس المترامي.
حبيبتي، لا تصدقيني إن قلت أني مشتاق إلى عينيك، فإني أراها تطل عليّ من بين السطور، تهامسني مثلما أهامسها وتعوضني عن لحظات لم يطاوعني قلبي فيها

(١) القر: البرد

أن أرفع عيني في عينك ربما حياء منك، أو رهبة من ألا يكون ما بخاطرك هو ذاته ما بخاطري، فأردت أن أكتب لك كلماتي تلك لأبثك ما بخاطري فأستشعر منها ما بخاطرك تجاهي، واسمحي لي أن أخبرك أنه من أول نظرة احتضنت فيها عيني عينك وقد أصبح قلبي جنينًا في رحم هواك، يتنفس عبيرك، ينبض بدماك، ينمو مع كل نظرة، مع كل بسمة، مع كل لقاء، وها قد حان المخاض(١) وقد رفعت يدي عن قلبي الوليد وتركته بين يديك تتصرفين فيه كيفما تشائين، فإما أن تقبليه ليرى نور الحياة، أو تقتليه قبل أن يولد، فبكلمة منك يصبح قلبي إما مولودًا أو موؤودًا(٢)، فهو أول وليد يولد بكلمة.

سأنتظر إجابتك غدًا في أول لقاء وسوف أدرك مرادك من نظرات عينيك".

أنهى الرسالة وأخذ يفكر في الطريقة التي تصل بها الرسالة ليد الأميرة، لم يكن من السهل أن يزور النوم أجفانه كعادة لياليه منذ أن طرق الحب باب قلبه، فما أطول ليل العاشقين، ثم أنهكه التفكير فاستسلم للنوم في آخر الليل.

في الصباح كان درس العلم بينه وعبد الله ورقية، كان يخفي الرقعة في كتابه، وما أن انتهى من درسه حتى هم بإعطائها لها ثم تردد فجأة حين رأى عيونًا للوليد تراقبه، وكان عباد يقف على مقربة منهم بحجة حراسة الأميرة لينقل للوليد ما يدور بينهما في مجلس العلم، فطن ابن الكاتب إلى أن الوليد يراقبهما فتراجع عما كان ينويه، وأنهى المجلس ولم يحادث الأميرة مثلما يحادثها كل يوم بعد انتهاء الدرس.

في طريقه لغرفته أخذ يفكر كيف يوصل الرسالة إليها، كان زمزم يروي البستان حين رآه فحياه ابن الكاتب فرد التحية، مشي لعدة خطوات ثم وقف ونظر خلفه إلى زمزم ثانية وقال:

- يا زمزم حينما تنهي عملك، الحق بي في غرفتي، أريدك.

- لعل الأمر خير.

---

١) المخاض: ألم الولادة.

(٢) موؤودا: الموؤود هو الذي يدفن حيًا وفي القرآن الكريم "وإذا الموؤودة سئلت".

أدرك ابن الكاتب أن جنود الوليد يتنصتون لحديثه فقال:
- إن شجرة التيوليب(١) قد نشبت أفرعها إلى داخل نافذتي كما لو تريد أن تبتلعني.
قال زمزم متهكمًا:
- حسنًا، أنا قادم لأنقذك من التيوليب المفترس.
بعد وقت يسير لحق به زمزم، دخل إلى الغرفة ونظر حوله ثم قال:
- أين فروع الشجرة التي دخلت إليك، فلا أرى شيئًا؟
- ما لذاك دعوتك يا زمزم، بل لما هو أهم.
- أتمنى أن يكون خيرًا، فما أكثر متاعبك.
- خدمة صغيرة يسيدها الأخ لأخيه.
- وما تلك؟
- توصل تلك الرسالة إلى الأميرة رقية.
- ألم أقل لك إن متاعبك كثيرة، وكيف أصل أنا إلى جناح النساء؟
- ألم تقل لي من قبل أنك تذهب إلى هناك لترى أمك.
- نعم لكني لا أدخل جناح الأميرات يا صاح، أنا أذهب لغرفة أمي في الأسفل.
- اطلب من أمك أن توصلها للأميرة.
- أبعد عن أمي عن تلك الحماقات يا ابن الكاتب؛ فأنا أخشى عليها من بطش السيدة صفية.
- حسنًا، ابحث عن الوصيفة "فجر" وأعطها إياها وقل لها هذه رسالة من الأمير الحافظ للأميرة.
- ولم لا أعطيها لسليمى؟
- سمعت الأميرة تثني على فجر في حديثها وتذكرها بكل خير.
أطرق زمزم لبعض الوقت ثم قال:
أفي الرسالة شيء يضرني أو يضرك؟ –

---

(١) التيوليب: هو نوع من الأشجار يتبع الفصيلة البنيونية له أزهار حمراء طيبة الرائحة وموطنه الأصلى إفريقيا وأستراليا، لكنه ينتشر في المناطق ذات الجو الدافئ.

- قلت لك لا تخف شيئًا يا زمزم.
- حسنًا، ولكن بهذي أصبحت مدينًا لي بالكثير.
كان الظلام قد أسدل ستائره على القصر حين انطلق زمزم متجهًا إلى جناح النساء، استأذن الحراس في الدخول إلى أمه وكان مسموحًا له ذلك، فلما دلف إلى داخل الطرقة رأى الجارية فجر تضع بعض الماء على النار لتجهز غسل الأميرة، ناداها زمزم وأخرج الرسالة من ملابسه وأعطاها إياها، وأخبرها أنها من الأمير الحافظ ثم دخل إلى حجرة أمه.
عادت سليمى إلى الأميرة تحمل الماء ومعها الرسالة، وكانت الأميرة في غرفتها تغتسل في حوض وردي زاهٍ معطر، ورائحة البخور تفوح كالمسك، وكانت سليمى تصب عليها الماء، ثم أنهت الأميرة غسلها وارتدت ملابسها وجلست وإلى جوارها جاريتيها الأثيرتين يمشطان شعرها ويضفرانه، فقالت فجر:
- سيدتي قد جاءت رسالة إليك من الأمير الحافظ.
تهلل وجهها فرحًا وقالت تحدث نفسها:
- أبي كم اشتاق إليك.
ثم أمرت الجاريتين بالانصراف، وكانتا لم تكملا من بدأتاه بعد.
أمسكت الرسالة وفتحتها، وما أن وقعت عينها على أول حرف فيها حتى فطنت لما فيها، وأدركت أنها من حبيبها فتغير وجهها واحمرت جبهتها وتصبب النضح(١) منها خجلًا، وأخذت تقرأها ومع كل حرف تنسكب الدموع من عينيها ويعلو شهيقها ويحتد زفيرها ويضطرب قلبها، كان وقع الكلمات شديدًا على قلبها الرقيق، وكان الذهول يسيطر على قلبها وعقلها، وقد أثارت كلماته في قلبها أمواجًا من المشاعر الراكدة،
ثم قالت:
- يشهد الله أني أحبك يا محمد لكن ما كل هذا الجنون؟ ويل لي ولك لو وقعت الرسالة في يد أحد من القصر.
ثم استلقت على سريرها وأجهشت في البكاء حتى همت عينها(١) وبح صوتها

(١) النضح: العرق.

أسرعت سليمى إلى الوليد تخبره بأمر الرسالة، فخرج مسرعًا إلى غرفة أبيه وأمه ثم سأل أباه الوزير:
- هل جاءت أي رسائل من خالي الحافظ اليوم يا أبي؟
- لا يا ولدي لم يصلنا منه أي رسائل اليوم، فآخر رسالة تلك التي قرأها علينا الكاتب في مجلس الملك منذ أيام.
- هذا معناه أحد أمرين لا ثالث لهما، إما أن خالي الحافظ يراسل رقية سرًا بمساعدة الكاتب، أو أن الرسالة ليست من الحافظ، لذا يجب أن أعرف سر تلك الرسالة.
خرج مسرعًا إلى سليمى وقال:
- ائتني بهذه الرسالة بأي طريقة يا سليمى، أفهمت؟ بأي طريقة.
عادت سليمى إلى الأميرة فطرقت الباب واستأذنت في الدخول فأذنت لها الأميرة، قالت سليمى:
- بعد إذن مولاتي الأميرة قد جئت لآخذ الملابس كي أغسلها.
فأشارت الأميرة بالموافقة وكانت على فراشها تبكي، نظرت سليمى بعينيها يمينًا ويسارًا.
تبحث عن الرسالة حتى رأت دخانًا ينبعث من إناء فخاري على نافذة الغرفة ولمحت
طرف الرسالة في الإناء تحترق، فهرعت إلى النافذة وقالت:
- مولاتي، سوف أغلق تلك النافذة وأسدل الستائر فالهواء البارد بعد حمام دافئ قد يضر سلامة مولاتي الأميرة.
لم تعرها الأميرة اهتمامًا فقد كانت غارقة في دموعها.
أغلقت سليمى النافذة وانتشلت الرسالة المحترقة من الإناء في خفة واطفأتها وأخفتها وسط الملابس ثم خرجت مسرعة إلى الوليد قائلة:
- عذرًا يا سيدي، سامحني أرجوك، فليس لي ذنب في احتراق الرسالة فقد وجدت الأميرة قد أحرقتها، أرجوك يا سيدي سامحني.

---

(١) همت عينها: سال منها الدمع.

لم يرد على توسلاتها واكتفى بالإشارة إليها بالانصراف فانصرفت، ثم بدأ في قراءة السطور التي أكلت النار أغلبها لكن تبقى بعض منها يظهر مكنون الرسالة، ما أن قرأ بعضًا منها حتى ابتسم ابتسامة خبيثة، ثم ذهب إلى حيث يهجع أبواه وطرق الباب ففتحت له أمه فأشاح باالرسالة أمام عينيها قائلًا بابتسامة خبيثة:

- لقد وقع الصيد في الشَرك(١) يا أماه.

في الصباح كان ابن الكاتب جالسًا في درس العلم مع رقية وعبد الله كعادة كل صباح، في هذا اليوم كانت رقية شاردة مصفرة الوجه يبدو عليها القلق والوجوم، كانت تفكر في الرسالة وتستعيد كلماتها، كان الخوف باديًا في عينيها، كانت تستشعر خطرًا ما، وكان ابن الكاتب يراقب عينيها محاولًا كشف مكنونها أو بلوغ أي رد منها على كلامه، لكن نظراتها لم تزده إلا حيرة وغموضًا، فلما رأى منها هذا الوجه اشتد قلقه وجال في خاطره أنها رافضة، فندم في قرارة نفسه على فعلته وتمنى لو لم يقترف هذا الإثم.

لاحظ عبدالله اضطرابهما فسألهما:

- ما بكما اليوم؟ أين حماسة كل يوم؟

- لا شيء يا عبد الله لعله التعب والسهر.

ثم انتهوا من الدرس نظرت إليه ونظر إليها بشوق ولهفة كأنما أول مرة يرى كل منهما الآخر، أو ربما آخر مرة، حاولت ألا يدور بينهما حديث فالعيون كثيرة، قالت في قيامها:

- قد تركته يولد ويرى النور.

فبش وجهه وانفرجت أساريره فقد فهم ما ترمي إليه من أنها تبادله نفس الحب، فشعر وكأنما قد بلغ النجوم في عليائها وأحس أن الدنيا قد دانت له وأصبحت طوع بنانه، فأي فرح ذاك وأي سعادة تلك حين تكتشف أن من تحبه يبادلك نفس الحب، من فرط سروره وبالغ فرحه سالت دموعه، لكنها هذه المرة تختلف عن أي دموع سالت من قبل، إنها دموع الحب، فالحب الذي تغسله العيون بدموعها يظل طاهرًا بريئًا خالدًا، وأصدق الدموع دموع الرجال.

---

(١) الشرك: الفخ.

عاد مسرعًا إلى غرفة الكتب وأطلق عنان عينيه تذرف من العبرات ما تشاء.
في عودتها إلى جناحها قابلها الوليد فحياها وحيته ثم أمر الجواري بالانصراف.
- كيف حالك يا ابنة خالي؟
- الحمد لله يا ابن عمتي.
- أراك نضرة الوجه حثيثة الهمة، قد استعدت عافيتك وجمالك، أما آن الأوان لنعلن الزواج؟
- لقد تكلمنا في هذا الأمر من قبل يا أمير.
- ولم لا نتكلم فيه ثانية؟
- اجعل كلامك مع عمي الملك فهو وكيلي في ذلك.
- إن حدثته ثانية أتُرى يوافق الآن؟
- لا أدري.
- وإن رأى تلك هل يتيغر في الأمر شيء؟
وأخرج لها الرسالة المحروقة فاضطربت وخفق قلبها خفقانًا شديدًا ودرات الأرض من تحت قدميها حتى كادت يغشى عليها، ثم أكمل قائلًا:
- أتدرين ما عقاب الملك لفتاة خائنة؟
قالت بصوت متهدج(١):
- احفظ أدبك يا وليد.
بدا الشر في عينيه ونفرت عروقه وقال:
- تتركين فارس بنى الرزين من أجل كاتبك هذا الذي لا يجيد سوى الكلام والمغازلة والكتابة والشعر، تدعين طلب العلم وتجعلين من الدروس حجة للمواعدة واللقاء، تؤثرين عليَّ عاملًا من عمال القصر نتصدق عليه فيخوننا، والله يا رقية لأفصلن رأسه عن جسده وألقيها تحت قدميك، ثم لترين مني بعد ذلك ما لا تطيقين.
ثم تركها وانصرف.
حاولت أن تستجمع قوتها وأن تغالب دوران عقلها ثم نظرت حولها مرتبكة فلم تجد أحدًا، فاتجهت إلى جناح الملك ثم تسللت نحو الطرقة المؤدية إلى

(١) صوت متهدج: ضعيف مرتعش.

غرفة الكتب، طرقت الباب ففتح الباب، وما أن رآها حتى كاد يصعق من شدة الفرح، التقت عينه بعينها كأن لم تلتقيا من قبل، أطالا النظر وكانت اللهفة والتحنان والوله تنبثق من عينيهما ثم رأت ذراعه ينزف فتناست ما جاءت لأجله، واقتطعت قطعة قماش من ذيل فستاناها وربطت به ذراعه، وقالت:

- ما الذي جرحك هكذا؟

- ما أهون ذلك الجرح، فجرحي الأليم هنا يا رقية.

وأشار إلى قلبه، نظرت خلفه ففهمت الأمر حين وجدت مكتوبًا بالدم على الجدار:

"بدمي كتبت على قوائم شرفتي أني أحبك يا قرينة ذاتي"

لما قرأت تلك الكلمات لم تشعر بنفسها إلا وهي تلقي نفسها بين ذراعيه، فاحتضنه بقوة واحتنضها وطال العناق وسالت الدموع وعلت صرخات القلوب، صرخات مكتومة لا يفهم معناها سواهما، كأن القلوب تحاكى بعضها بحديث لا يفهمه غيرهما ثم قالت:

- أتجرح نفسك وتُسيل دمك لأجلي؟ من أجل بيت من الشعر تكتبه لي؟

- دمي وعمري فداك يا حبيبتي، وإني قد اعتدت أن أدون لحظات فرحي وألمي، فأردت أن أخلد يوم ميلاد حبنا فلم أجد أطهر وأصدق من الدم، ولا أثبت وأخلد من الجدار كي أدون لحظتي تلك عليه.

مسحت بكفها على وجهه وكفكفكت دمعه وقالت:

- اسمعني جيدًا يا محمد، لقد كشف الوليد أمر الرسالة وهددني بإفشاء السر.

اضطرب حين سمع منها ذلك وقال بلهجة خافتة:

- وكيف كشف الأمر؟

- لا بد وأنها الخبيثة سليمى، فإصرار عمتي على بقائها وصيفة لي كان يزيد شكوكي حولها.

- وماذا تظنين أنه فاعل؟

---

(١) صوت حسيس: منخفض.

(٢) تحت الرغوة الصريح: مثل تضربه العرب فيمن ينكشف حقيقته بعد خفائها.

(٣) الرواغ: من أسماء الثعلب.

- لا بد أنه سيخبر الملك بشأنها، أخاف عليك من كيد الوليد وبطش الملك، اهرب إلى خارج المدينة؛ فإني أشم رائحة الخطر وأرى الغدر في أعين الوليد.
- لا لن أفعل ذلك، كيف يخيل إليك أني من الممكن أن أفارق مكان أنت فيه أو أن أهرب وأتركك تواجهين مصيرك وحدك، سأواجه الملك وأنا واثق في عدله.
- أنت لا تعرف غضبته ولا تعلم مدى استغلال عمتي وابنها وزوجها لمكانتهم عنده في التحكم في أمره ونهيه وثوابه وعقابه، اهرب أرجوك لا وقت لدينا فالوليد الآن عند الملك، اهرب يا محمد، أما أنا فسأعود، فلا بد أن الملك سيرسل جنوده إلى هنا لإحضارك، ولو وجدوني عندك سيثبت الأمر علينا.
قالت ذلك وهي تودعه عائدة مسرعة من حيث جاءت،
وقف على باب الغرفة يراها وهي تمضي مسرعة ثم قال بصوتٍ جلي:
- لن أهرب يا رقية وسأواجه الملك.
استأذن الوليد في الدخول على الملك فأذن له فدخل منتشيًا كالفاتح العظيم، حيا الملك وحياه الملك، وقال:
- قد جئت إليك في أمر جلل يا مولاي.
قال الملك بصوت حسيس(١) وقد بدا عليه التعب والمرض.
- بشأن ماذا؟
- ذاك الذي يدعى ابن الكاتب.
قاطعه الملك قائلًا:
- ألم أنهك عن الحديث في هذا الأمر ثانية.
- اسمعني يا مولاي أرجوك فتحت الرغوة الصريح(٢).
- ماذا ترمي بقولك يا وليد؟
- سبق وحذرت مولاي الملك من ابن الكاتب هذا وقلت أن مثل هذا كالرواغ(٣) لا أمان له، وبدلًا من أن يتيقن مولاي من الأمر نهرني وكاد يضرب عنقي، لكن الله يأبى إلا أن يظهر الحق فقد سقطت الأوشحة وفضحت النوايا، تفضل يا مولاي هذا دليل إدانته، رسالة هيام يرسلها إلى الأميرة رقية ابنة أخي الملك الذي أكرم مثواه، يغافلنا ويستحل أعراضنا ويخون أمانتنا، ولا بد أن يأخذ كل مذنب

جزاءه على ما قدمت يداه، لقد وضحت الأمر لك يا مولاي والأمر الآن بيديك.
جن جنون الملك حين قرأ بعض كلمات الرسالة واستشاط غضبًا وأمر بإحضار ابن
الكاتب على الفور، جيء به وكان ما يزال في غرفته لم يغادرها،
دخل إلى مجلس الملك فلما رأى الوليد والرسالة فهم الأمر بغير كلام، قال له الملك:
- الموطأ هو كتاب نسخه لنا أبوك منذ عشرين عامًا، أخبرني ماذا قال الإمام مالك في من يخدش الستور ويستحل الحرمات ويخون الأمانة.
هم ابن الكاتب ليفتح فاه بالكلام فقاطعه الملك:
- قل لي يا ابن من أحسنا إليه ما قول الإمام في ذلك؟ أؤمنك على ابنتي فتراسلها برسالات الغرام وتحدثها حديث العشاق وتحرضها على رفض الزواج من الأمير.
- يا سيدي أما بشأن التحريض، فلم أحرض الأميرة على شيء، أنا فقط نصحت بالاستشفاء وقد أيد الأطباء رأيي في أمر تأجيل الزواج، وأما بشأن حبي لها فلا أنكره ولا أراه ذنبًا ولا عيبًا ولا جرمًا.
- اصمت ولا تتكلم أيها الخبيث، فالذنب أن تغازل فتاة مخطوبة، والعيب أن تستغل ثقتنا فيك وقربها منك في مجالس العلم، والجرم أن تتجرأ وتراسلها بحديث العشاق مدعيًا أن الرسالة من أبيها، يا حراس صفدوه بالأغلال وخذوه إلى السجن.
استوقفه الوليد ونظر إلى جرحه الذي في يده وقال:
- ما الذي جرح يدك هكذا؟
- شوكة من البستان.
- وما هذا الضماد؟ إنه من ثوب نسائي!
.-
أشار لهم الملك أن يأخذوه فانصرفوا،
أحس الوليد بنصر عظيم فقد مالت كفة الأمور في صالحه كثيرًا.
أمر الملك باستدعاء رقية فجاءت، في طريقها للملك رأت الحراس يسوقون

ابن الكاتب إلى السجن مصفدًا بالأغلال، نظرت إليه ونظر إليها، نظرات من يستجدي الحيلة ممن لا حيلة له، نظرات بائسة يائسة حزينة ثم واصل كل منهما سيره.

دخلت على الملك وكان قد بلغ أقصى درجات الغضب فقال:

- ما قولك في تلك الرسالة يا رقية؟

- لا أنكرها.

- أخبريني ما الذي بينك وهذا اللعين، وماذا أصاب منك؟

- أتقذفني بالباطل؟ أولا تثق في ابنتك يا عماه؟

- بلى، ولكن ليطمئن قلبي.

- حاشاي أن أكون كذلك، فأنا ابنتك التي تربت على يديك، ونشأت في كنفك، وليس بينى وابن الكاتب إلا حب عفيف لا ذنب فيه، فأنا أحبه مثلما يحبني وأعرف الحق من الباطل، وأحكم زمام نفسي ولا أغضب ربي.

قال الوليد بلهجة ماكرة:

- وما الذي قطع أطراف ثوبك هكذا؟

زاد غضب الملك وحنقه ونفرت عروقه وقال:

- اسمع يا وليد، لقد دللنا تلك الفتاة حتى صارت تناطحنا الرأي وصارت من أهل الحب والهوى، زواجك على رقية سيتم حين عودة الحافظ من الغرب.

ثم بدا عليه التعب، فسقط لا يستطيع التنفس فتجمع حوله الأطباء بسرعة.

كان الملك قد تحسنت صحته قليلًا فأمر بتعيين أحد الكتاب الصغار محل ابن الكاتب وأمر بمراسلة الحافظ والربت على يديه في سرعة إنجاز ما يوكل إليه وسرعة موافاة الملك بأمر الجنود هناك وعددها وتسليحها، فكان رده أنه قد أنجز العمل على الوجه الذي يريده الملك، وأخبر أنه قد أعد لحفل كبير بمناسبة افتتاح القصر الجديد، ودعا الملك وكبار رجال الدولة للحضور في الموعد، وطلب من الملك أن يحضر معه رقية وإخوتها وزوجته فهو في شوق شديد إليهم، فرد الملك على الحافظ بالثناء والشكر وبإجابة طلبه، وأخبره بحضور الوزراء والأمراء واعتذر عن الحضور بحجة انشغاله ببعض الأعمال، فربما يلحق بالركب فيما

بعد وأخفى عنه أمر مرضه؛ حتى لا يشغله عما يوكل إليه.
أمر بإعداد العدة من أجل السفر إلى الغرب حيث الحافظ، وأخبرهم بأنه آثر البقاء في القصر لحين تحسن صحته، واقترحت صفية أن تخرج ومعها نساء القصر جميعًا من أجل المشاركة في الحفل والابتعاد عن أجواء الحزن التي أصابت القصر، وأن يخرج زوجها ابن يحيى والوليد نائبين عنه، فأيد الملك ذلك، لكنه استبقى زوجته وولده وآثر أن يبقى معه الوزير ابن يحيى ليكون عونًا له وسندًا، وكذلك قائد الحراس ابن جهور، واختص بعضا من رجاله وندمائه ليبقوا إلى جواره، وقال للوليد:
- عليك أن تظل هناك مع خالك الحافظ لحين أستدعيكما وطمئنا أهلنا في الغرب وأشعراهم أننا معهم قريبين منهم لم ننسهم ولن نفرط فيهم، وعليكم أن تستميلوهم وتضمنوا تأييدهم، فقد نسيناهم حتى كادوا يخرجوا من تحت رايتنا وينصروا أعداءنا علينا، ستقود الركب في الصباح بإذن الله وأبلغ سلامنا للحافظ وأبي حمزة.
- سمعًا وطاعة يا مولاي.
في تلك الليلة كان القصر في أهبة الاستعداد للسفر إلى تيروال وكانت رقية وحيدة حبيسة في غرفتها بعد أن شدد الملك الحراسة عليها ومنعها من الخروج إلا بإذن منه، كانت تبكي بعين سجوم(١) حتى تقرح جفناها لما أصاب حبيبها، وكانت تخشى ما تخبئه لها الأيام من غدر ومكائد.
جاءتها الجارية تخبرها بأمر سفرها مع الركب إلى أبـيـها في الغرب ففرحت لأنها سترى أباها وتخرج من محبسها، لكنها لم تكن ترغب في أن يجمعها بالوليد طريق، لم تكن ترغب في مغادرة القصر الآن؛ حتى لا تبتعد عن حبيبها المسجون بسببها.
كان محبسه في غرفة صغيرة مظلمة لا هواء فيها ولا يعرف النور لها طريقًا، أسجف الليل(٢) عليه فكانت صورتها أمام عينيه لا تفارقه، وكان صوتها يناجي أذنيه ويؤنسه في هذا الليل الموحش وكانت ذكرى عناقها تدفئ برده القاسي، وكان حلو حديثها في خاطره يطفئ لظى قلبه، بات ليلته على تلك الحال حتى

تحلز قلبه(٣) وجزع، وأحس كأنه يموت ألف مرة، فقد لا يراها مرة أخرى، فقد يزوجوها للوليد، قد يظلموا قلبها البريء الطاهر، كان يدعو الله أن ينجيها من كيد الوليد، وأن يفك أسره حتى يساعدها في الخلاص منه حتى ولو لم يتزوجها هو.

في الصباح كان الركب قد استعد للرحيل، وقف زمزم مودعًا أمه بدموع حارة فقد كانت تلك هي المرة الأولى التي يفترقان فيها، ولكنها طمأنته وأخبرته أنها زيارة قصيرة للغرب وستعود مرة أخرى للقصر، حين رآهما الوليد أقبل عليهما وقال بصوت خافت لا يسمعه سواهما:

- أما أنتما فحسابكما سيكون عسيرًا، تصبحان عينين لابن الكاتب وتنقلان رسائله لنساء القصر وتساعدانه على الفجور، والله لتذوقان مني العذاب الأليم ريثما أفرغ مما أنا فيه.

ثم تركهما وانصرف ونادى في الجنود بالتحرك.

نظرا إليه بخوف ورهبة ولم يردا على تهديده، ثم احتضنت أم زمزم ولدها بدموع حارة ورحلت.

وقف الجميع مودعين الملك وودعهم، ثم خرجوا متجهين إلى الغرب يتقدمهم الوليد وحارسه الأثير عباد وبعض من حراس القصر ورجال الوليد الذين يثق في ولائهم له، ويتوسط الركب هودج عظيم تستقر فوقه صفية وآخر لرقية وآخر لزوجة الحافظ وأبنائها، وغيره لزوجة الوليد وأبنائها ثم الجواري، قطعوا الطريق فكانوا كلما مروا بقرية استقبلهم أهلها استقبالًا حارًا وهتفوا لهم وأكرموهم، ومضى الركب حتى بلغوا أبواب تيروال فاستقبلهم الناس بالهتاف والتهليل، ثم مضوا يشقون صفوف المحتشدين حتى بلغوا القصر، فكان في استقبالهم الحافظ وأبو حمزة والي الغرب، استقبلهم الحافظ أحسن استقبال وعانق ابنته الأميرة بلهفة وشوق وكذلك إخوتها الصغار وزوجته، ثم أخذ أهل بيته في جولة يطلعهم فيها على القصر فأذهلهم روعة التصميم ودقة البناء، تجول معهم

---

(١) عين سجوم: غزيرة الدمع.

(٢) أسجف الليل: أظلم.

(٣) تحلز قلبه: توجع.

في الحديقة ثم صعد بهم إلى حجرات القصر وغرف المبيت والأجنحة الملكية حتى انتهى بهم إلى مجلس الحكم، أبدت صفية انبهارها بمجلس الحكم وكرسي العرش، قال لها الحافظ:

- امكثي هنا ما شئت يا أختاه، أما أنا فسآخذ زوجتي وأولادي لأريهم الجناح الذي اخترته لهم.

مضى الحافظ ومعه زوجته وأبنائه، ومكثت صفية والوليد في مجلس الحكم، أخذت صفية تتطلع إلى كرسي العرش المرصع بالجواهر الثمينة والمطلي بماء الذهب وأطالت النظر ثم اقتربت منه وأخذت تدور حوله وتتحسسه بيديها ثم نظرت للوليد وقالت:

- عما قريب ستجلس هنا.

ابتسم الوليد وقال:

- ما زال للبلاد ملوك يا أماه، فخالي الحاكم هناك، وخالي الحافظ هنا.

- ستكون أنت هنا وهناك يا وليد، عما قريب.

استقرت رقية في غرفة هادئة، هواؤها منعش وشمسها دافئة، اختارها لها أبوها تطل على بستان القصر وقريبة من غرفته الخاصة، حاولت أن تنام في فراشها الناعم لكن أقضى المضجع عليها(١)، فكان يشق عليها أن تنام في تلك الليلة، أول ليلة تبتعد فيها عن غرفتها وقصرها الذي اعتادت العيش فيه، لم تعتد الغربة، فرغم كل هذا الترف في القصر الجديد كانت تحس بغربة ووحشة شديدة، كانت تفكر فيه، كانت تراه كأنه أمامها، تحاكيه كأنه معها، كانت تتذكر كلماته في رسالته التي حفظتها عن ظهر قلب، كانت ترتجف خوفًا مما آل إليه مصيره، كانت تشتاق للعودة، تحن إلى جدران القصر وإلى طيف حبيبها المسجون.

علم عبد الله بما كان من أمر ابن الكاتب؛ فتوسل لأبيه أن يعفو عنه وبكى بكاءً شديدًا، ورفض أن يتلقى دروسًا من أحد سواه، وأقسم لأبيه أنه لم ير منه ولا من رقية أي منكر ولا سوء، ولم يكن حديثهما إلا حديث المعلم لطالبه أو ربما الصديق لصديقه، رفض الملك طلب ابنه عبد الله وكان يعز عليه ذلك، فلما يأس عبد الله طلب من أبيه أن يسمح له أن يذهب لابن الكاتب في محبسه فيتلقى

(١) أقضى المضجع عليها: جعلها لا تنام.

الدروس هناك، ثم مع كثرة إلحاح الصبي أمر أن ينقل ابن الكاتب من السجن الكبير إلى سجن القصر وهو أحسن حالًا، ثم أمر بأن يؤتى بعبد الله إليه ساعة كل يوم يعلمه فيها العلم.

كل ليلة في القصر الجديد كان يجلس الوليد وخاله الحافظ مع ندمائهما وأصدقائهما في مجالس اللهو والقصف(١) والشراب، التي كانوا يدمنونها والتي كانت تغضب الملك منهما دائمًا فكانا يحرصان عليها خارج القصر، أما الآن فقد أمكنهما إقامتها داخل القصر كما يشاءان فأُحضرت المعازف وغنت الجواري ورقصت الراقصات وجيء بالطعام والشراب وسهرا للصباح، ثم قال الوليد للحافظ:

- أما آن الأوان أن نعلن زواجي من رقية؟
- كيف يا وليد ونحن خارج قصر خالك الملك؟
- سيبارك الزواج ولن يمانع.
- لن أقبل بذلك إلا في حضور الملك.
- قد يلحق بنا خالي الملك فعلينا أن نمهد للأمر.
- حسنًا يا وليد سأتولى الأمر.

في الصباح استأذن الحافظ في الدخول على ابنته قائلًا:

- كيف حال سيدة القصر؟

تهلل وجهها بابتسامة رقيقة ثم قالت:

- أبي لقد أضأت غرفتي حين دخلت.
- يا لك من فتاة عروب(١).
- ومن تلك التي تملك أبًا مثلك ولا تغازله.
- كم هو محظوظ الوليد بك يا جميلة الأندلس.

تغير وجهها واختفت بسمتها، لاحظ أبوها ذلك فسألها:

- ما بك يا بنيتي؟
- لا أريد الزواج يا أبي، فأنا ما زلت صغيرة.

---

(١) القصف: اللهو واللعب والفتنان في الطعام والشراب.

- ألم نتكلم في هذا الأمر من قبل؟
- نؤجل الكلام إذن لحين عودتنا وحتى نطمئن على عمي الملك.
- ما به؟ هل أصابه مكروه؟
- كان قد مرض قبيل أن نأتي إلى هنا.
- لم يخبرني أحد بذلك، سأبعث إليه لاطمئن عليه أو أذهب إليه بنفسي لكن اعلمي أن الوليد يتعجل الأمر ويريد تحديد الموعد.
- عمي الملك هو من يحدد الوقت يا أبي.
- حسنًا يا رقية كما تريدين.

خرج وتركها واجمة حزينة، فالدموع متحجرة في عينها وشفتاها ترتجف من الخوف من المصير المجهول، لا تدري ماذا تفعل، هي فقط تسوف وتؤجل ولا تدري حتى متى.

جلس الحافظ والوليد ليلًا يتسامران ويتضاحكان كعادة كل ليلة، فسأل الوليد خاله عن موعد العرس فأخبره أن رقية تفضل أن ننتظر حتى نعود ونطمئن على صحة الملك، وحتى يكون الكلام مع الملك، ثم قال الحافظ في غضب:

- لِم لم تخبرني بأمر مرض خالك يا وليد؟
- الأمر أهون مما تتصور، فهي وعكة يسيرة أصابت الملك، وهو الآن بخير وقد تأكدت من سلامته بنفسي قبل السفر إلى هنا ولم أترك طبيبًا إلا وسألته عنه، لكن الأمر ليس كذلك، وما تلك هي الحجة.
- ماذا تقصد يا وليد؟
- ابنتك يا خالي تجمعها علاقة عشق وهوى بابن الكاتب عامل القصر.

تغير وجه الحافظ وبدا عليه الغضب وصرخ قائلًا:

- أراك قد أثقلت من الشرب يا وليد فتهذي بكلام كهذا، ولولا مكانتك عندي لحاسبتك على هذا الكلام.

ثم هم بالنهوض، أمسك الوليد بيديه وقال:

- اجلس يا خالي واسمعني، لقد وقعت في يدي رسالة كان قد أرسلها إليها ابن الكاتب يصف فيها الحب بينهما ويحكي الغرام والأشواق، وعلم الملك بأمر

---

(١) عروب: تجيد الكلام الجميل والملاطفة، وقد وصف القرآن الحور العين "عربًا أترابًا".

الرسالة فغضب فتدهور حاله وسقم وعاقب هذا اللعين مكتفيًا بسجنه ثم أمر بسرعة إتمام الزواج، كم كنت أتمنى لو وكلني أمر هذا الخنزير، كنت ضربت عنقه في الحال واسترحنا منه ومن شره.

قال الحافظ في غضب:

- أنا كفيل بهذا اللعين، فمقتله سيكون على يدي أنا.

عاد الحافظ إلى ابنته وواجهها بخبر علاقتها بابن الكاتب وبالرسالة التي جرت بينهما وأغلظ لها القول واحتد عليها في الكلام ولم تكن الأميرة الصغيرة قد اعتادت من أبيها على ذلك، كانت تجهش بالبكاء لكنها استجمعت قوتها وقالت:

- أنا لا أنكر ما بيني وابن الكاتب، لكني أخبرت عمي أنه حب طاهر لا عيب فيه.

- أنا أبوك، وأنا صاحب الرأي، وإن كنت آخذ رأي عمك فهذا لمكانته عندي وولايته أمرنا، وإن كان لا يرضيني ما فعله من إدناء هذا العقرب حتى يغدر بنا ويلدغنا ويخوننا.

- لا تقل ذلك يا أبي فهو حسن الخلق، شديد الحياء نقي القلب صفي القريحة(١)، وفي للقصر وأهله.

- عن أي أخلاق تتحدثين؟ يتجرأ على نساء القصر بعدما أمناه ثم تقولين نقي القلب، لولا كشف الوليد لنواياه لتمادى في الأمر ولا أدري ما عساه يفعل.

- يا أبت لا تستلم للوليد هكذا ولا تثق فيه كل تلك الثقة واحذر مكر الوليد وأمه.

جن جنونه فصاح فيها:

- حذار أن تتكلمي عن عمتك وابنها بسوء مرة أخرى، واعلمي أن زواجك من الوليد سيتم في أقرب وقت.

قالت بنبرة حادة:

- لن أتزوج الوليد ولو كان آخر نفس لي في هذه الدنيا.

غضب غضبة لم يغضب مثلها قط، فقد كانت تلك هي المرة الأولى التي تعصاه فيها ولطم خدها لطمة كادت تطرحها أرضًا وتوعدها بالويل والعذاب لو

(١) القريحة: الطبيعة.

ذكرت الكاتب هذا مرة أخرى، ثم تركها وانصرف.
كان الملك قد لزم فراشه فكان يستدعي خواصه المقربين ورجاله المخلصين، وكانوا يجتمعون كل ليلة حول فراشه يحاكونه، فكان يأنس بهم كثيرًا فقد كان مولعًا بمجالس العلم والحكمة، فكان يصطفي من رجاله من كان ذا علم ودراية وحكمة، وكانت تصله رسائل الحافظ يطمئنه فيها على حال من معه ويستفسر عن أمر مرضه، فكان يرد عليه أنه قد برئ من مرضه، وأنه في أحسن حال ويمنع الحافظ من العودة حتى تستقر أمور الغرب ويطمئن على جيشه ورجاله هناك.
في غرفتها كانت تجلس باكية حين دخل أبوها واعتذر لها عما بدر منه، قال بصوت حاني:
- سامحيني يا بنيتي عما بدر مني، فالغضب من الشيطان وهذه أول مرة تمتد يدي إليك بسوء.
- أنا لا أغضب منك البتة يا أبي، وأعلم أن قلبك أنقى من الماء القراح(١) وأعدك ألا أعود لما يغضبك ولا أقول إلا ما يرضيك.
وأمسكت يده تقبلها فربت على ظهرها وقال:
- أعوذ بالله من شرة(٢) الغضب، ما دفعني لذلك إلا الخوف والغيرة.
- أعلم يا أبت وأدعو الله أن يلهمك سداد الرأي.
كان عبد الله يتردد عليه في محبسه فكان يسأله عن حال القصر وسكانه فأخبره بمرض أبيه فحزن لمصابه، فقد كان يحب الملك رغم ما فعله به، وكان على يقين من أن الملك حكيم عادل طيب القلب فلم يكن يمقته ولا يلوم فعلته، وكان ما يطفئ لظى قلبه هو علمه أن كل ذلك كان بإيعاز من الوليد، وأن الأمور ستنكشف يومًا ما ويدرك الملك الحقيقة ويتيقن من صدقه وولائه وسلامة نيته وحبه للأميرة، ويعلم المفسد من المصلح ويتقي شر الوليد وأهله، ثم سأل عبد الله عن رقية وماذا فعلوا بها، حاول عبد الله أن يخفي عنه أخبارها، لكن مع إلحاح ابن الكاتب أخبره بسفر الركب إلى الغرب وبقرب إتمام الزواج،

---

(١) الماء القراح: الصافي الخالص.
(٢) شرة الغضب: حدته.

ونصحه بأن ينسى الأمر ولا يعلق أمله فيما لا يُدرك، فزاد حزنًا على حزن وهمًا على هم، حتى انقطع عن الزمن فلم يعد يأبه لتعاقب الأجدين (١) وقهم(٢) الطعام والشراب حتى أنهكه الوجد(٣) وأتعبه الحثات(٤)، فكان ينام نومًا كحسو(٥) الطير وكادت السدفة(٦) تذهب بصره، حتى سُمع نشيجه(٧) من خلف القضبان وتدهور حاله وحثل(٨) ونحل جسده.

أحس زمزم بوحشة ووحدة فقد أصبح في القصر كاليتيم بعدما فقد أمه وصاحبه وحبيبته الجارية، كان يقضي وقته إما بين الأشجار والزهور أو مع الحمائم التي كان موكلًا بعنايتها، كان يناجي الحمائم ويبثها همومه ويحاكيها كما لو كانت تسمعه وتناجيه، وكان دائمًا ما يسأل الأمير الصغير عن حال صاحبه، فكان يطمئنه عليه ويبلغه سلامه، وكان ابن جهور يأمر حراس السجن من جنوده بالإحسان إلى ابن الكاتب وإكرامه، واعتنى بنفسه بطعامه وشرابه، ودائمًا ما كان يزوره وحزن لما رأى ما آل إليه حاله، حاول أن يصبره لكن دون جدوى فقد كانت حالته تسوء يومًا بعد يوم.

رأى زمزم ابن جهور قادمًا من بعيد فأقبل عليه بلهفة قائلًا:

- مرحبًا بأمير الحراس، ما الذي يخفيك عن القصر هكذا؟

- تعلم يا زمزم أن الملك قد وكل لي كل أمور الشرطة والجيش منذ أن رحل الأمير الوليد.

- أخبرني بالله عليك هل من أخبار أتت من الغرب؟ متى سيعود الركب؟

- لا أدري يا زمزم، فكما قلت لك أني أصبحت بعيدًا عن القصر لحين عودة

---

(١) الأجدين: الأجدان هما الليل والنهار.

(٢) قهم: فقد الشهية للطعام والشراب.

(٣) الوجد: الشوق الشديد.

(٤) الحثات: النوم الخفيف.

(٥) نوم كحسو الطير: خفيف لا راحة فيه.

(٦) السدفة: الظلمة.

(٧) نشيجه : النشيج هو البكاء والتنهد.

(٨) حثل: نحل وضعف والحِثل هو الهزيل.

الأمير، لكني علمت أن الجيش هناك ما زال في مرحلة البناء والمدينة في طور الإعمار، فالأميران موكلان بإصلاحات عدة، فأمرا باستصلاح الأرض وتنشيط التجارة وإقامة الأسواق والمتاجر وتمهيد الطرقات وتأمين المداخل والمخارج، وقد يأخذ ذلك وقتًا.

- وكيف حال ابن الكاتب في السجن؟

- لا أخفي عليك يا زمزم إن حاله يسوء، وهيئته تثير الشفقة، فقد أعرض عن الطعام وأحجم عن الكلام وضعف وهزل وساءت صحته وإني أشفق عليه كثيرًا، وأتمنى لو يشفع له الأمير الصغير عند أبيه فيصفح عنه.

كسا الحزن ملامح وجه الزمزم البريء لما سمعه عن حال صاحبه فتمتم قائلًا:

- ليتني ما سألت.

أدرك الملك دنو أجله فأمر أن يجتمع رجاله على الفور وطلب الوزير ابن يحيي والقاضي وصاحب الخزانة وفقيه المدينة فجاءوا على الفور، فتكلم قائلًا:

- لقد جمعتكم اليوم مستشيرًا في أمر قد ترددت كثيرًا فيه، وأريدكم أن تعينوني فيه.

- كلنا آذان مصغية يا سيدي.

- تعلمون أن أيامي في هذه الحياة أصبحت قليلة.

- أطال الله عمرك يا سيدي.

- لكل أجل كتاب، هذا حكم الله فمهما طالت الآجال فالموت آت

فلو كانت الدنيا تدوم لأهلها لكان رسـول الله حيّـًا وباقـيا

ولكنهـا تَفـنى ويُفـنى نعيمُـها وتَبقى المعاصي والذنوبُ كما هيا

وإذا كنت في إدبار والموت في إقبال فما أسرع الملتقى.

- هوّن على نفسك يا مولاي بالله عليك.

- اسمعوني جيدًا، تعلمون مدى حبي لأخي الحافظ، وتعلمون مدى إخلاصه لنا، فإليه يعود الفضل في قوة الجيش وتوطيد المُلك، لكنه دائم اللهو محب للسكر والشراب لا يحسن اختيار البطانة ولا يهتم لأمر الرعية، وقد نصحته كثيرًا ونهيته مرارًا لكن لا يستمع للنصيحة ولا ينتهي عما يفعل، فأخاف إن وُكلت له الأمور

من بعدي أن تضيع البلاد منه كما ضاعت حولنا بلاد.
همهم الحاضرون ونظروا لبعضهم قائلين:
- لكن يا سيدي قد استأمنته على الجيش.
- أستأمنه في وجودي وأنا بجانبه فأخرج معه في حروبه، لكن بعد موتي لا أدري إلام تصير الأمور، لذا فإني أفكر أن أوكل الأمر إليكم وأحملكم أمانة أمام الله تعالى، أن تكونوا أوصياء على ولدي عبد الله وريثي في الملك وخليفتي في الحكم، سأكتب لكم مع الحافظ أخي الوصاية عليه وعندما يبلغ رشده يتولى الأمر منكم، وسأجعل من الحافظ رئيسًا لمجلس الوصاية، واخترتكم معه لما توسمت فيكم من الحكمة وحسن التدبير والولاء لنا، فكونوا معه يدًا بيد ولا تتركوه يغرق البلاد بسوء صحبته وقلة حكمته.
تعجب الرجال من ذلك وقالوا:
- لكن يا مولاي قد يتسبب الأمر في وقيعة بينكم والحافظ.
- لن يحدث هذا، فالحافظ أخي قد ربيته صغيرًا وأعرف أنه يدرك جيدًا أني لا أحب أحدًا مثله، وأعلم أن أمور الحكم لا تشغله ولا تسيغه، ولن أبلغه الأمر إلا حين يعود وسوف أستشيره قبل أن أشرع في شيء، لكني أحببت أن أطلعكم على نيتي وآخذ برأيكم ومشورتكم.
نظر بعضهم إلى بعض ثم تحادثوا بصوت خافت فانتهى بهم الأمر على استحسان رأي الملك.
قال الملك: وما قولك يا ابن يحيى.
كان الوزير ابن يحيى شاردًا، فانتبه حين كرر الملك سؤاله عليه وقال متلجلجًا:
- اا، ال، الخير فيما اخترت يا مولاي.
لم يعجب كلام الملك الوزير ابن يحيى فبدا عليه الاضطراب والقلق لكنه أضمر ما في مكنونه فأبدى الموافقة وكتم الاعتراض، فلم يكن يتوقع أن يحدث ذلك من الملك وأن يجرد الحافظ من رتبته وليًا للعهد، وأن يتجاهله وولده في قسمة إرث المُلك تلك، فقد أفسد الملك بقراره هذا كل ما دبره هو وزوجته لتمكين ولده من المُلك فأسرع بكتابة الأمر في رسالة وأرسل بها على الفور مع أحد رجاله

لتتسلم يدًا بيد إلى الوليد أو صفية.
بلغت الرسالة صفية فجن جنونها، ثم استدعت الحافظ والوليد وأطلعتهم على أمر الرسالة وقالت:
- أرأيتما ما يفعله أخي؟ يتجاهل رجاله الأوفياء وقادة جيوشه ويولي عليهم صبيًا صغيرًا، يختار ابن الجارية ملكًا من بعده! أنسي أخي أنكما أنتما اللذان فتحتما له الفتوح وقدتما له الغزوات، ومعركته الأخيرة تشهد، فلولا تخطيط الحافظ وتدريبه الجنود لما تحقق الزحف أولًا، ولولا تدبير الوليد وسرعة استجابته وانقضاضه لما تحقق النصر ثانيًا، إن هذه الأرض التي نقف عليها الآن لولاكما ما كانت أرضًا له، ولصارت مطمعًا لهذا وذاك، وإني يا حافظ لا أرى أجدر بالملك منك.
- هل نعارضه يا أختاه؟
- نعارضه إذا أخطأ يا حافظ.
- أرى أن نراجعه في الأمر، فربما يعدل عن ذلك الأمر.
- لن يعدل عن الأمر يا حافظ، فقد بلغ لعلمي أنه يدبر لذاك الأمر منذ زمن وقد استغل بعدنا عن القصر لإنفاذ ما ينوي عليه.
- وماذا نفعل؟
- لا يجب أن نسكت على فعلته تلك، فأرى أن نعلن الغرب مملكة لا ولاية ونتخذ تيروال عاصمة لها ونتجرد من سيطرة الملك عليها وتصير أنت ملكًا لها ونضم إلينا سائر بلاد المملكة، ونترك له مدينته الصغيرة وقصره القديم يمرح فيهما مع ابن الجارية.
فكر الحافظ قليلًا ثم قال:
- يا أم الوليد، أرى أن أراجع أخي في قراره هذا وأن أسافر إليه لأستفسر عن ذلك.
- لقد أخفى الملك ذلك الأمر، ولولا أن أبا الوليد أخبرنا به ما كنا علمنا بنيته، وقد أخبرنا أبو الوليد في رسالته أن الملك يخفي الأمر لحين عودتكما، وأخشى أن يكون قد دبر لكما أمرًا.

ساد الصمت للحظات وكادت الحيرة تقتل الحافظ فاسترسلت صفية قائلة:
- أعلم أن كل هذا بإيعاز من زوجته المدللة وولدها السفيه، لا تتوان في الأمر يا حافظ فالتأخير قد يضرك وقد يكسبه وقتًا ليبادرك هو، أعلن للناس أنك ملك البلاد بأمر من الملك الحاكم، وأنه قد وكل لك أمر مملكة الغرب تحت رايته ولا تخبر أحدًا بخلافك معه حتى تضمن ولاءهم وعدم انشقاقهم عنك.
- وماذا أفعل مع والي المدينة أبي حمزة المراكشي؟
قال الوليد:
- نسجنه إن أبدى اعتراضًا أو نقتله إن غدر.
قالت صفية:
- نخطئ لو فعلنا ذلك، بل نعزله بلطف ونعلن تعيينه في منصب آخر كتكريم له ولا نؤذيه، فهذا والي المدينة منذ سنين وقد ألفه الناس وأحبوه، ولو يؤذى بشيء قد ينصرف الناس عنا ونخسر عطفهم وولاءهم، فعلينا أن نتركه بعض الوقت حتى ينساه الناس ثم نتخلص منه بعد ذلك بطريقتنا.
صمت الحافظ كثيرًا يفكر ثم قال:
- حسنًا، سأعلن للناس أني ملك البلاد والوليد قائد للجيش.
قال الوليد:
- ونولي أبا حمزة أمر الشرطة، ونجعل تحته أحد رجالنا مثل عباد، فيخبرنا بكل أمره ويقينا غدره، فإن أثبت ولاءه أبقيناه من رجالنا وإن لم يثبت فالعقاب ألوانه كثيرة.
قالت صفية:
- لا تنس يا وليد أن أباك ما زال في الشرق عند الملك وأي خطوة قد تودي بحياته، سنؤجل الأمر لحين نراسله أن يلحق بينا.
ثم أمرت الرسول أن يسلم ابن يحيى رسالة يخبره فيها أن الحافظ يدعوه للقدوم على الفور إلى الغرب من أقصر طريق.
استدعى الملك رجاله كعادة كل ليلة فتخلف ابن يحيى، أرسل إليه من يستدعيه فلم يجده، سأل عنه الرجال فلم يجبه أحد، لم يعلم أحد أين ذهب، فأدرك

الملك هروبه وشعر بتدبيره وقيعة بينه والحافظ فسارع بإرسال رسالة للحافظ يتعجله فيها بالعودة إليه ويأمره ألا يستجيب لأى محاولات وشاية أو وقيعة ويخبره أنه لن يتخذ قرارًا إلا بعلمه وبموافقته وفي حضوره، وأنه لم ينو حرمانه من الملك بل كان يرمي بذلك إلى تثبيت المُلك ومد جذوره لأكثر من رجل حكيم عاقل.

و كان الوليد قد أمر حراس القصر أن يستقبلوا أي رسول قادم إلي القصر فيكرموه ويتركوه يقيم في القصر ولا يسمحوا له بالدخول على الحافظ إلا بعلم منه.

كانت رسالة الملك قد بلغت القصر فاستقبل الحراس حاملها وأخذوها منه وأكرموه وقدموا له ما لذ من الطعام والشراب وأمروه أن ينتظر رد الملك الحافظ، ثم جاءوا بالرسالة إلى الوليد فقرأ ما فيها وأخفاها عن الحافظ، ثم قام بتغيير الرسالة فكتب أخرى يأمر فيها الملك أخاه الحافظ بسرعة الرجوع لإعلان البيعة لابنه عبدالله ويهدده فيها ويتوعده بالويل والعذاب إن عصى الأمر أو خالف الرأي.

فلما قرأ الرسالة احترقت نفسه غيظًا وكتب للملك

"إذا راسلتني مرة أخرى فاسمي ملك شنتمرية، وما هكذا يخاطب الملوك بعضهم البعض، فما عدت أمير جندك حتى تهددني وما عدت ذلك الأخ الصغير الذي تضربه إن أخطأ".

بلغت الرسالة الملك فأدرك أن رسالته لم تصل الحافظ وفهم أنهم قاموا بتغييرها فأيقن وشوك الفتنة وحدوث الوقيعة وعلم أن الحافظ قد انساق في تيار صفية الذي سيعصف بالجميع ولن ينجو منه أحد.

بعث الوليد من ينادي في الناس أن الملك الحافظ يطلب الناس في ساحة القصر فاجتمع الناس من كل حدب وصوب ووقف الحافظ يخطب فيهم:

"يا أهل شنتمرية تعلمون أننا بفضل الله قد استطعنا دحر العدو عنكم فحفظنا دماءكم وأموالكم وأعراضكم، وقد رأينا أن بعدكم عن مركز الحكم في الشرق قد يضعف شوكتكم ويطمع الأعداء فيكم، وقد توسمنا فيكم الطاعة والولاء

ورأينا منكم الجلد وحسن القتال، فاستصغرنا عليكم أن تكون بلدكم هذه ولاية صغيرة تابعة لعاصمة البلاد في الشرق تسافرون إليها أيامًا وتضربون إليها أكباد الإبل لقضاء حوائجكم، فرأينا ورأى أخونا الملك الحاكم ملك البلاد أن تكون مدينتكم الصغيرة هذه مملكة قوية، تصبح عاصمة البلاد وقبلة المدن، مستقلة بذاتها لها حكامها ومراكز قيادتها وجيشها وتجارتها وأسواقها، وقد بلغ إلينا تمرد بعض البلاد حولكم وانشقاقهم لما علموا بمرض الملك، فعقدنا العزم على لم الشمل وجمع حبات العقد مرة أخرى.

ثم أمر بإحضار الأموال والذهب فجيء بها فأمسك بعضًا منها بقبضته وأكمل قائلًا:

- أرأيتم هذا الذهب؟ إنه من خيركم ومن أرضكم ويذهب للبلاد حولكم ويوزع على غيركم، فإن اتبعتمونا صار المال مالكم والعز عزكم وصارت البلاد حولكم تابعة لكم نضمها إليكم الواحدة تلو الأخرى بالحسنى إن استجابت وبالسلاح وسواعدكم إن أبوا، فمن كان معنا فليعجل بإعلان البيعة والولاء ومن كان له رأي غير الرأي فليطلعني عليه. فلم ينطق أحد، ثم هتف أحد الجنود بإشارة من الوليد فهتف قلة قليلة من الناس معه ثم مرة فمرة علا الهتاف للملك الجديد وبايعوه على ذلك،

أعلن عليهم أول قراراته بتعيين ابن يحيى وزيرًا له والوليد قائدًا للجيش وأبي حمزة قائدًا للشرطة وعباد قائدًا لحرس الملك، ثم مضى يملي عليهم باقي المناصب.

كانت رقية تتابع الأمر خلف ستار نافذتها وسمعت ما قاله أبوها، فانهارت وبكت بكاءً شديدًا، فقد أيقنت حدوث الوقيعة بين أبيها وعمها الملك، وأدركت أنها لن تعود مرة أخرى إلى الشرق، استأذنت في الدخول على أبيها في مجلسه وكان مكتظًا بالجلساء والمهنئين، فخرج إليها فطلبت منه أن تحادثه في غرفتها فصحبها إلى هناك، ثم سألها عن دموعها فعاتبته كثيرًا على فعلته وحذرته مرة أخرى من الوليد ومن عمتها فغضب وقال:

- ظننتك جئت إلى المجلس لتهنئي أباك الملك.

- يا أبت إن عمي لا يستحق منا ذلك، ولا أنت رجل المروءة أهل لذاك.
- عمك هو من بدأ.
- إنها مكيدة يا أبي صدقني أرجوك.
لم يستجب واستأذنها في الانصراف لانشغاله بتدبير مُلكه واختيار حاشيته، ثم غادر وتركها وحيدة أسيرة في غرفتها لا تطيق البقاء في مكان قد تلوث هواؤه بالغدر والخيانة وبدأت تفوح منه رائحة الدم.
بدأ الوليد يسير الجيوش واحدًا تلو الآخر إلى المدن الصغيرة الواقعة بين الشرق والغرب، كان يدخل البلاد بغير قتال فيقيم خيمة كبيرة في وسط المدينة ويأمر الناس أن يأتوا ليبايعوا على الطاعة والولاء فإن استجابوا ترك عليهم واليًا وكفاهم شره وإن لم يستجيبوا أمر بسجن وقتل أكابرهم فينقلبوا صاغرين طائعين، وما هي إلا أيام قليلة حتى دانت إليه سائر المدن وضم إليه أغلب بلاد المملكة فزادت ثقة الحافظ فيه وفي ولائه وأوكل إليه الكثير من الأمور.
بلغت أخبار الغرب الملك فكان وقعها شديدًا عليه، فقد أحزنه ما تم تدبيره وأتعبته الخيانة وزاد عليه المرض وتدهورت صحته ولزم فراشه واعتزل رجاله واكتفى أن يلازمه في فراشه ولده وزوجته، قال عبد الله مواسيًا:
- لا تحزن يا أبت فلا بد أن عمي الحافظ سيعدل عن الأمر ويعود إلينا، يا أبت إن عمي طيب القلب ولم يفعل ذلك إلا بتحريض من الوليد، فالوليد هذا خراج ولاج (١) ذو مكر ومكيدة، فلم أكن احبه وكنت أخشى نظرات عينيه وأشعر دائمًا أنه يدبر شرًا، أتنسى أنه سبب الوقيعة بينك وابن الكاتب وقد كان من أخلص رجالك؟
تذكر الملك ابن الكاتب فقال:
- أترى أني ظلمت ابن الكاتب يا عبد الله؟
- ظلمته الوشاية يا أبي، أرجوك اصفح عنه، فحاله يُرثى له يا أبي ولم يستحق منا كل هذا.
استجاب الملك لولده وأمر بإخراجه من محبسه.
كان مستلقيًا على الأرض غارقًا في غمه وهمه، فانتبه إلى ضوء خافت أصاب

(١) خراج ولاج: واسع الحيلة.

عينيه فقاوم الضوء محاولًا فتح عينيه والتفت فرأى الباب قد فتح ثم سمع صوت ابن جهور ينادي:
- هيا يا ابن الكاتب انهض معي فالملك يريدك.
مضى مع ابن جهور صامتًا لا يتكلم، حاول ابن جهور أن يحادث ويخفف عنه فكان يومئ إليه برأسه ممتنًا حتى بلغ باب الملك، فأمره بالدخول وصرف الحراس.
وقف بين يدي الملك الراقد في فراشه، كانت هيئته تثير الشفقة فقد أهمل لحيته وشعث(١) شعر رأسه وضعف جسده واحمرت عيناه من السهر وبدا أثر نوم الأرض على ظهره المنحني قليلًا، قال بصوت خافت يغالب جهشة(٢) في عينه:
- الحمد لله على سلامتك يا سيدي فقد أفزعني خبر مرضك.
لما رآه الملك أشفق عليه فقال بصوت حان:
- لا عليك يا ابن الكاتب فأنا بخير، كيف حالك في السجن؟
- ما السجن بتلك الجدران التي تحجب السجين عن الدنيا وإنما السجن الحقيقي هو الظلم الذي يحجب المرء عن النور هو الخوف الذي يحجبه عن الحق.
- أجل يا محمد ولكنك أخطأت حين تصرفت بغير علم منا.
- أعترف بخطأي يا سيدي وأعتذر إليك مرة أخرى عما بدر مني، لكن أقسم لك أن قربي من الأميرة ما كان إلا ما يصير من المرء حين يمر أمام نهر فيرى يدًا تمتد إليه تترجاه أن ينقذها من الغرق، فكانت الأميرة تراني رغم قلة حيلتي القشة التي يتعلق بها الغريق، فلم أشأ أن أخذلها، فما كان مني إلا أن ساعدت قلبها المسكين ألا يستسلم لزواج لا يريده.
- لا عليك فقد برح الخفاء(١) كنت على صواب وكنا على خطأ يا ابن الكاتب، وها قد غدر بنا أقرب الناس إلينا، استعانوا برجالنا وتسلحوا بسلاحنا وتزودوا بخيرنا.
ثم خرجوا عن طاعتنا وصرفوا الناس عنا، والآن أصبح قصري وأهل بيتي في

(١) شعث: أغبر متلبد.
(٢) جهشة: دمعة.
(٣) برح الخفاء: وضح الأمر وظهرت الحقيقة.

مرمى سهام غدرهم، وقد يكون عينهم على ما تبقى من الأرض فلا بد أن أطماعهم لن تنتهي.
- كلنا رجالك يا ملك البلاد، ولن نسمح لأحد أن يطأ أرضنا تلك ولا يمس قصرنا هذا بسوء، وسنبذل أرواحنا ودماءنا فداء لك ولأهل بيتك.
- أما زلت تدين لنا بالولاء؟
- لقد جُبلت القلوب على حب من أحسن إليها يا سيدي.
- جزاك الله خيرًا يا محمد، فكم يؤلمني أن ينصفني من ظلمته ويخذلني من أكرمته.
- تلك هي الدنيا تفعل بأهلها ما تشاء.
- اسمع يا ابن الكاتب، ها أنا كما ترى على فراش الموت.
قاطعه ابن الكاتب:
- لا تقل ذلك يا سيدي أطال الله عمرك.
- هي سنة الله في الأرض يا محمد، فمهما طال الليل لا بد من طلوع الفجر ومهما امتد العمر فلا بد من دخول القبر.

وإنما الموت منتهـى كل حـــي لم يصب مالك من الملك خلدا

وأكمل قائلًا:
- اسمع يا محمد، أني قد رأيت شدة تعلق ولدي بك وقربه منك وقربك منه ولاحظت حبه لك وتوسمت فيك الخير فرأيت أن أوصيك به خيرًا.
سأجعل لك حظًا من المُلك ونصيبًا من المال وإرثًا بعد موتي تنفق منه كما تشاء، لكن استوصي بعبد الله وكن له أخًا وسندًا، لا تدع مكروهًا يمسه وادفع عنه كيد الكائدين ومكر الماكرين وسيكون ابن جهور معك وقريبًا منك وسنشد عضدك برجالنا، فاصطفي منهم من تشاء.
كان الحافظ قد وطد أركان مملكته الجديدة ودانت له سائر البلاد، وكان يراسل أخاه الملك يبشره بالنصر بعد النصر وكان قد راجع نفسه وندم على غلظة قوله وسوء أدبه مع أخيه في رسالته فأرسل إليه معتذرًا وشرح له أسباب فعلته تلك وعاتبه على قلة ثقته فيه وأخبره أن كل ذلك النصر يحدث تحت رايته، ولم يكن

على علم بما انتهى إليه حال أخيه الملك، وبتمكن المرض منه، ولم تكن كل تلك الرسائل تصل إليه فقد كان الوزير وابنه يتحكمان فيما يصل إليه ويصدر منه، فكانوا يستميلون الرسل والكتّاب وكل عمال البلاد ويسخرونهم لخدمتهم، وكان الحافظ معزولًا عن العامة مقطوعة سبله بينه وأخيه، وكانت رقية تتقصى أخبار أي رسول يأتي من الشرق لتسأل عن حال عمها وحال حبيبها فأمرت جاريتها فجر أن تراقب الرسول حتى إذا خلا وحده منفردًا سألته عن عمها وابنه وابن الكاتب.

دخلت فجر بالطعام والشراب إلي الرسول ثم وقفت خلف ستار تتحين فرصة يكون فيها منفردًا فتسأله، لكنها رأت صفية وهي تأخذ منه الرسالة ثم مضت وعادت بعد قليل وفي يدها رسالة غير التي ذهبت بها، فأخبرت الأميرة بما رأت من الملكة فأدركت رقية أن رسائل الملك لا تصل لأبيها، وتيقنت تمامًا أن صفية وابنها هم سبب تلك الوقيعة، أسرعت رقية إلى أبيها أخبرته بما جرى من عمتها فرد غاضبًا:

- ألا تنتهي أنت عن محاولة الوقيعة بيني وعمتك وابنها؟ لا تجعلي رفضك للوليد سببًا في ظلم الناس ورميهم بالباطل.

قالت باكية:

- أقسم لك يا أبت أن عمتي وابنها هما من دبرا للوقيعة بينك وعمي وإن لم تصدقني تيقن من الأمر واستجوب رسول عمي عن إخفاء رسائله، وإن كنت مخطئة فسأتحمل تبعات خطأي.

فكر الحافظ كثيرًا ثم أمر أن يؤتى إليه بالرسول فجاء ووقف بين يديه فأمره أن يسلمه رسالة الملك فسلمه رسالة غير التي جاء بها أعطتها إليه صفية وفيها تهديد ووعيد من الملك أن ينتقم من أخيه الخائن قال الحافظ:

- أهذه هي الرسالة التي جئت بها من الملك؟

- أجل يا سيدي.

- أمر الحراس أن يجلدوه حتى ينطق الصدق.

كان الرجل خائفًا من بطش الوليد فأمنه الحافظ وأخبره أنه إذا صدق القول

سينجو ويعود سالمًا.
فأقر الرجل بما كان من أمر صفية فغضب الحافظ غضبًا شديدًا، وأدرك للمرة الأولى أن المكائد قد دبرت للوقيعة بينه وأخيه، وأن الوليد وأبوه وأمه يدبرون له أمرًا.
استدعاهم وواجههم بما كان من أمر الرسول فأنكروا فواجههم بالرسول فاعترف فأمر بالعفو عنه وأمر حراسه أن يحملوه إلى خارج المدينة حتى إذا صار آمنًا تركوه يعود بسلام وأن يخبر الملك أن الحافظ بريء من الخيانة وأن الغدر إنما جاء من أختهما وساعدها في ذلك زوجها وولدها.
عللت صفية ما كان من أمر الرسائل أنها كانت لا تريد أن يشغله شاغل ولا يثنيه شيء عن عزمه في فتح البلدان وتقوية شوكة المملكة من جديد وإن فعلتها تلك قد جعلت من البلاد أمة قوية تهابها الممالك وتدين إليها البلدان، ولو حدث وتراجع الحافظ في بادئ الأمر لعادت الأمور لما كانت عليه من الضعف والتفكك.
رد الحافظ قائلًا:
- لم أطلب منك يا صفية أن تكوني وصية علي حتى تتكلمين بلساني وتبعثين الرسائل باسمي، ألا تنسين أبدًا ذلك الطفل المدلل الذي كان يلهو في القصر ويلعب مع أبنائك، أنا الآن راشد لست في حاجة للوصاية لا منك ولا حتى من أخي الأكبر.
ثم نظر إليهم في ضيق قائلًا:
- سوف أعود إلى أخينا لأصلح ما أفسدتموه، ولكي اطمئن عليه فقد قصرت في حقه كثيرًا، وسآخذ معي زوجتي وأبنائي، وسأعطيكم فرصة للعدول عن الطريق الذي تمضون فيه، فأدعوكم للعودة معي من أجل تسوية الأمور مع الملك، إن أردتم العودة فمرحبًا وإن لم تريدوا فبيني وبينكم قطيعة حتى تعودوا لصوابكم.
ثم خرج متجهًا إلى الجناح الذي تقيم فيه عائلته.
اعترض الوليد طريقه قائلًا:

- ارجع يا خالي ولا تفسد ما أنجزناه.
- لا تكلمني حتى يصفو لك قلبي ولا أظنه سيفعل.
- بينى وبينك ما يشفع لي عندك.
- لا شيء يشفع في الخيانة يا ابن أختي فوالله ما أراكم إلا جوَرة (١) محتالين.
حاول الوليد أن يعوقه ويمنعه من الخروج مرة أخرى فأخرج سيفه ورفعه في وجه الوليد وقال:
- والله إن لم تبتعد عني لضربت عنقك.
ثم نظر إليهم باحتقار قائلًا:
- كما أقنعت الناس بالولاء لي وأخضعت البلاد لرايتي سأردها مرة تحت راية أخي، سأذهب الآن وحين أعود سيكون حسابي معكم عسيرًا.
ثم تركهم وخرج.
نظر الوليد إلى أبويه قائلًا:
- لو انضم إلى الملك فسوف ينصرف الناس عنا وستقطع رؤوسنا وتُعلق على أبواب
المدينة.
قالت صفية:
- لا بد أن نمنعه من العودة بأي طريقة، فلو عاد لانتهى كل ما دبرناه ولانتهينا نحن أيضًا، وسيعلم الناس أن الملك وأخاه يد واحدة وسنصبح نحن المنشقين عن الصف، وسيذاع في الناس أننا خائنون غادرون وتُهدر دماؤنا.
قال ابن يحيى:
- نسجنه لحين ننظر ماذا نفعل.
-قالت صفية:
- سنثبت على أنفسنا الخيانة يا أبا الوليد ويشيع بين العامة أنا غدرنا بالملك الجديد.
- ما العمل إذن يا صفية؟
- تعلمون أن عيون السرقسطيين وجواسيسهم تملأ البلاد، فلو مات على يد

(١) جورة: ظلمة مفردها جائر

أحدهم أو هكذا نزعم لمات شهيدًا فلا نخسر بذلك ولاء الناس ونلهب حماستهم للانتقام من العدو الغادر.
قال الوليد:
- فهمتك يا أماه.
قال ابن يحيى:
- كم أنت داهية يا أم الوليد!
خرج الحافظ إلى جنوده فاستدعى أحد قادته المصطفين وكان يثق في ولائه له فأمره أن يجهز بعضًا من الحراس المخلصين ويستعدوا للرحيل إلى السهلة عاصمة الشرق، ثم انصرف إلى الجناح الذي تقيم فيه عائلته فوجدهم مجتمعين فحياهم وقال:
- أعدوا أنفسكم للرحيل فسوف نعود إلى السهلة، لقد أمرت جنودي بالاستعداد، فلا وقت لدينا.
تلهلل وجه رقية وعانقت أباها عناقًا طويلًا وقالت:
- الحمد لله الذي هداك للطريق المستقيم بعيدًا عن طريق الوليد وأمه.
- ليتني استمعت إلى نصيحتك من ذي قبل.
- المهم أنك علمت المفسد من المصلح.
- لقد ظلمنا عمك يا رقية وآن الأوان أن نصلح ما تم إفساده.
قالت متنهدة:
- ليس عمي وحده الذي ظُلم يا أبي.
قطع حديثهما صوت الخادم يستأذن الملك قائلًا:
- القافلة جاهزة للمسير يا سيدي والحراس في الانتظار.
استأذنت رقية أبيها كي تذهب لتودع أم زمزم فاحتضنتها وودعتها وداعًا حارًا. انسكبت فيه الدموع وعلا النشيج ثم طلبت الجارية المخلصة من سيدتها أن تتوسط لها عند الملك الحاكم كي يستدعيها أو تستأذن السيدة صفية في أن تسمح لها بالعودة فقد ساءت معاملتها لها منذ كُشف أمر الرسالة وأصبحت تخشى بطش صفية وابنها فطمأنتها رقية قائلة:

- لا تقلقي يا أم زمزم واصبري، فالفرج بات وشيكًا وستنكشف الغمة عما قريب .

ثم قطع لحظة الوداع تلك صوت الحافظ يأمر الخدم أن يحملوا الأمتعة، ثم نزل مع أسرته ووقف أمام البهو المؤدي إلى مجلس الحكم فرأى صفية وولدها وزوجها في الداخل فنظر إليهم نظرة احتقار تغني عن ألف كلمة، ثم أكمل سيره للخارج حيث عشرة من أعتى الجنود في الانتظار وقد أعدوا هودجًا لزوجة الملك وأبنائها الصغار وهودجًا للأميرة وهودجًا للجواري، نظرت أم زمزم من شرفة القصر بعين يملؤها الأسى، فقد كانت تمني نفسها بالعودة إلى القصر الذي أفنت فيه جُل عمرها ولكي ترى ولدها الوحيد، وكانت قد أوصت فجر أن تبلغ سلامها لابنها زمزم وتخبره أن يستأذن الملك الحاكم في المجيء إليها لزيارتها فوعدتها بذلك.

رمق الوليد الركب وهو يخرج إلى خارج أسوار القصر فغمز بعينه لعباد كي يلحق بهم فامتطى جواده وسار يتبعهم ويراقبهم دون أن يشعروا به.

مضى الحافظ ليلًا وسار بأهله حتى بلغ أطراف المدينة ثم خرج مبتعدًا عن المدينة ودخل البادية وكان الليل قد أسدل ستائره والظلام دامس والبرد شديد وبدأت رخات المطر تتساقط فوق الرؤوس، مضوا يسيرون حتى بلغوا شجرة وارفة وسط الصحراء فقرر الحافظ أن يتوقف الركب وتنصب خيمة للمبيت وتشعل النيران للتدفئة ثم أمر نساءه دخول الخيمة وأمر الحراس ألا يغفلوا ولا يناموا ثم خلع تجفافه(١) المبتل وجلس مع قائده الأثير يتسامران.

وكان قد غاب عن ذهن الحافظ أن الوليد قد تغلغل في الجيش والشرطة وتمكن من الجنود وأحكم قبضته عليهم وأقصى كل من لا يدين له بالولاء والطاعة، فما كل أولئك الحراس إلا جند من جنود الوليد قد دسهم بين ثلاثة حراس كان يصطفيهم الحافظ ويحبهم كثيرًا، ويصطحبهم معه في ترحاله، وبينما هو جالس يتسامر مع صاحبه، والنساء في خيمتهن نيام مطمئنين إذ سمع صراخات جنوده: **"أغيثونا"**.

---

(١) التجفاف: ما يلبسه المحارب كالدرع.

(٢) الأثير: المفضل.

في تلك الليلة كان الملك يرقد حزينًا مريضًا وإلى جانبه ولده، وكان قد اعتزل ندماءه وسمَّاره وأيقن دنو الأجل، فأمر أن يؤتى له بابن الكاتب، فجيء به فقال له:

- عظني يا ابن الكاتب.

فقال ابن الكاتب:

- لا أجد أفضل مما وعظ به الإمام علي ولده الحسن، فقد قال رضي الله عنه: "يا بني احفظ عني أربعًا، وأربعًا، لا يضرك ما عملت معهن، إن أغنى الغنى العقل، وأكبر الفقر الحمق، وأوحش الوحشة العجب وأكرم الحسب حسن الخلق، يا بني

إياك ومصادقة الأحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك، وإياك ومصادقة البخيل فإنه يقعد عنك أحوج ما تكون إليه، وإياك ومصادقة الفاجر فإنه يبيعك بالتافه، وإياك ومصادقة الكذاب فإنه كالسراب يقرب إليك البعيد، ويبعد عليك القريب".

وقال أيضًا:

"من نصب نفسه للناس إمامًا فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه، ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم"، وقال:

"أوصيكم بخمس لو ضربتم إليها أكباد الإبل لكانت لذلك أهلًا: لا يرجون أحد منكم إلا ربه ولا يخافن إلا ذنبه، ولا يستحيين أحد منكم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم، ولا يستحيين أحد منكم إذا لم يعلم الشيء أن يتعلمه، وعليكم بالصبر فإن الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد، ولا خير في جسد لا رأس معه ولا في إيمان لا صبر معهُ".

تأثر الملك بكلمات ابن الكاتب فقال:

- زدني من علمك.

فقال:

- في أي العلوم تريد يا مولاي؟

- في علم الحديث.
فشرح له بعضًا من صحيح البخاري، وبعضًا من سير الأئمة والتابعين حتى بلغ تلك القصة.
- قال المزني: "دخلت على الشافعي في مرضه الذي مات فيه فقلت: يا أبا عبد الله كيف أصبحت؟ فرفع رأسه وقال: أصبحت من الدنيا راحلًا ولإخواني مفارقًا، ولسوء عملي ملاقيًا، وعلى الله واردًا، ما أدري روحي تصير إلى الجنة فأهنيها، أو إلى النار فأعزيها، ثم بكى وأنشأ يقول:

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي ... جعلت رجائي نحو عفوك سلما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته ... بعفوك ربي كان عفوك أعظما
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل ... تجود وتعفو منَّة وتكرما

قال الملك:
- زدني من شعر الشافعي يا محمد، فقال:

- إن الطبيب بطبه ودوائه ... لا يستطيع دفاع مقدور القضى
ما للطبيب يموت بالداء الذي ... قد كان يبرئ مثله فيما مضى
هلك المداوي والمداوَى والذي ... جلب الدواء وباعه ومن اقتضى

فلما سمع الملك تلك الكلمات أجهش بالبكاء وانتحب حتى أشفق عليه ابن الكاتب، فاعتذر وتوقف عن الحديث.
قال:
- لا عليك يا ابن الكاتب، زدني من علمك ومن حلو قصصك.
- لن أزيد مولاي حزنًا فوالله لن أترك مولاي حتى أضحكه، ثم حكى له:
"قيل أن كلثوم بن الأغر كان قائدًا في أحد جيوش عبد الملك بن مروان وكان داهية ماكر، وكان الحجاج يكرهه كرهًا شديدًا؛ فدس له عند عبد الملك بن مروان فحكم عليه بالإعدام بالقتل بالسيف، فعلمت أمه بمصير ابنها فذهبت إلى عبد الملك بن مروان تلتمس العفو لابنها عنده، فاستحى عبد الملك بن مروان منها لكبر سنها
وقال لها: سأكتب للحجاج ورقتين الأولى يكتب بها يعدم والثانية يكتب لا

يعدم، وسنجعل ابنك يختار أي ورقة منهما فإن كان بريئًا نجاه الله وإن كان غير ذلك وقع في شره ونال عقابه.
حزنت أم كلثوم من قول عبد الملك وقالت لابنها:
- سيقتلك الحجاج.
قال كلثوم لأمه: لا تخافي ولا تحزني اتركيه لي.
ثم طلب كلثوم من عبد الملك والحجاج أن يجمعا الناس.
فوافقوا على طلبه، فقال للحجاج:
اكتب يا أمير الورقتين وسأختار منهما واحدة.
فكتب الحجاج في الورقتين يُعدم وطلب من كلثوم أن يختار واحدة فمد يده إلى ورقة منهما وأخذها وابتلعها بسرعة قبل أن يفتحها فاغتاظ الحجاج وابن مروان من فعلته، فقال: لا عليكما فحتما ستكون الورقة الثانية عكس الورقة الأولى.
فأمر ابن مروان أن يقرأوا ما في الورقة المتبقية فوجدها يعدم فقال الناس أن كلثوم اختار الورقة التي كتب عليها لا يعدم وبذلك نجا كلثوم بن الأغر بالحيلة والدهاء من مكر الحجاج".
ضحك الملك ونسي ما به من مرض وجلس يتسامر مع ابن الكاتب طوال الليل يأنس به ولا يمل حديثه.
كان الحافظ جالسًا أمام النار مع نديمه خارج الخيمة محتميًا بأوراق الشجرة الوارفة من القطر المنهمر، وبينما هما جالسان إذ رأيا الجنود يأتون مسرعين حاملين جثة جنديين ممن يصطفيهم ويحبهم وقالوا بلهفة:
- سيدي، هناك من يتربصون بنا خلف تلك التلة، لا بد وأنهم من قطاع الطرق، امتطى الملك صهوة جواده وحمل درعه وامتشق(١) سيفه وخرج مسرعًا ليرى ما حدث وصحبه صديقه، فما أن ابتعدا قليلًا وانعطفا نحو الربوة حتى وجدا كمينًا غادرًا قد نصب لهما من الجنود المصاحبين لهما، أخذا يقاتلان صامدين حتى قتلا منهم ثلاثة ثم تلقى الجندي المصاحب للحافظ طعنة أسقطته قتيلًا، فبقي الحافظ وحيدًا يقاتل حتى كاد يفنيهم وينتصر عليهم فجاءه سهم من فوق التلة فاستقر في ظهره ونفذ إلى قلبه فخر صريعًا في الحال.

---

(١) امتشق سيفه: أخرجه من غمده.
(٢) النوم الحثات: أي النوم الخفيف.

وما كان رامي السهم إلا عباد لما رأى هزيمة جنوده بادر هو بقتل الملك، ثم أشار عباد لجنوده أن أنجزوا ما أُمرتم به.

كان صليل السيوف وصهيل الخيول قد أيقظ رقية من نومها الحثات(٢) فاضطربت وقلقت كثيرًا، فنظرت من بين ستائر الخيمة فرأت الجنود يحملون أباها مقتولًا فخرجت مسرعة مذهولة، وصرخت صرخات لا يعلم مدى الألم فيها إلا الله، أخذت تقلب فيه يمينًا ويسارًا، تفتح عينيه، تتحسس نبضه، تسمع دقات قلبه، تراقب أنفاسه، أخذت تبكي وتنتحب:

- أبي بالله عليك أجبني، أبي لا تتركنا يا أبي، لقد قتلوك غدرًا يا قرة عيني.

هرعت إليها زوجة أبيها والأطفال الصغار وأخذوا يبكون فطغى صوت الصراخ والعويل على صفير الريح وهزيم(١) الرعد في تلك الليلة الحالكة الباردة المطيرة، نظرت رقية إلى الجنود نظرة شزرة واجمة، فأدرك كبير الجنود ما ترمي إليه تلك النظرة فأسرع قائلًا:

- لقد خرج علينا ملثمون يا سيدتي لا نعلم لأي فرقة ينتمون، أقطّاع طرق أم من جنود عدونا، فقتلوا معظم جنودنا وقتلوا الملك غدرًا.

نظرت إليهم في استهجان واستنكار كأنها تدرك كذبهم وتعلم غدرهم، ثم أمرتهم أن يحملوا جثة أبيها ويكملوا سيرهم ويبتعدوا عن تلك البلاد فرفض الجنود وقال كبيرهم:

- قد أرسلنا جنديًا للأمير الوليد ولن نستطيع مغادرة المكان إلا بأمر منه، فمقتل ملك البلاد ليس بالأمر اليسير يا سيدتي.

ما أن سمعت اسم الوليد حتى أخذت تصرخ فيهم لاستكمال السير لكن لم يجبها أحد، أخذت تجر حبال الإبل وتسحبها كي تكمل السير فمنعها الجنود، فاستسلمت وجلست باكية تحتضن إخوتها وزوجة أبيها ويعلو البكاء والنحيب.

جاء الوليد فما أن رأى جثة خاله حتى انكب عليه وتباكى وصرخ في الجنود:

- أين كنتم حين قتل؟ ليتني أرسلت معه جواري لا جنود صناديد، والله لأذيقنكم العذاب الأليم، ثم أمر أن يحمل الملك القتيل ويعودوا به إلى القصر، رفضت رقية وقالت إنها ستحمل أباها وتكمل المسير، رفض الوليد قائلًا:

---

(١) الهزيم: صوت الرعد.

- لا يجوز أن أتركك تتعرضين لأهوال الطريق فلا نريد مصائب أخرى.
لم تعره اهتمام وأصرت على المسير فمنعها الجنود وحملوها عنوة إلى هودجها وسيقت الإبل إلى الغرب مرة أخرى.
في القصر أمضت رقية ليلة قاسية كادت تعصف بقلبها الرقيق فجلست إلى جوار جثة أبيها تبكي بكاءً حارًا، لا تدري ما الذي ينتظرها من جوائح(١) الدهر؟ وهل يخبئ القدر لها ما هو أسوأ وأضل سبيلًا؟ أخذت تحدث نفسها كيف يصل الظلم بين الناس والتكالب على الدنيا ومتاعها الزائل إلى هذا الحد؟ أخذت تلعن المُلك والملوك ألف مرة، ذلك المُلك الذي يفرق الأحباب ويعادي الصحاب فيجعل الأخ يقلب لأخيه ظهر المجن(٢) من أجل كرسي يعتليه أو تاج يرتديه، ويطعن الخل ظهر خليله من أجل رتبة يرتقيها أو منصب يناله، فالنزاع على المُلك أفقدها أباها وعمها وحبيبها في آن واحد، حتى غدت بلا ظهر ولا سند، فريسة سهلة في حبائل(٣) الظالمين، كانت عمتها إلى جوارها تواسيها وتحادثها فلم تنظر إليها ولم تستمع إليها، فقد كان صوت الأفكار المختلجة في رأسها يطغى على صوت النحيب والمواساة من حولها، كانت واجمة لا تنطق وإن همت بالكلام لا تطاوعها شفتاها ولا صوتها المنهك، ظلت على ذلك الحال حتى أحست بيد حانية تمتد إليها فإذا هي يد أم زمزم جاءت تواسيها فاحتضنتها وبكت في حجرها بكاءً حارًا، وظلت على تلك الحالة حتى سقطت مغشيًا عليها، فحُملت إلى فراشها فرقدت فيه لا تقوى على الحراك، وأظلمت الدنيا من حولها، وفقدت مذاق أي لون من ألوان الحياة حتى زهدت فيها وتمنت لو تقتل نفسها ولا ينقذها أحد هذه المرة.
في الصباح ذيع في البلاد أن الملك قد مات غدرًا على أيدي عيون وجواسيس السرقسطيين أثناء سفره، وأن محاكمة الجناة ستكون بعد صلاة الجمعة.
ذهب الوليد إلى السجن فوجد بعضًا من الأسرى الذين كان قد تم أسرهم أثناء حربهم مع سرقسطة، وكانت أحوالهم سيئة وأوضاعهم مذرية، فأمر لهم

---

(١) جوائح: مصائب.
(٢) قلب له ظهر المجن: أي عاداه بعد مودة، والمجن هو الوشاح أو القناع.
(٣) الحبائل: أي المصائد.

بطعام وشراب وثياب وأمر الجنود أن يصلحوا من هيأتهم ويبدلوا ملابسهم حتى تختفي ملامح السجن عن وجوههم ووعدهم أن يمنحهم الحرية مقابل أن يعترفوا بقتلهم الملك.

فقال لهم بلهجة هادئة محاولًا طمأنتهم:

- سوف يأخذكم الجنود إلى القاضي، عليكم أن تعترفوا فقط بهذا الأمر وتقصوا عليه قصة قتلكم الملك والطريقة التي قتلتموه بها، - وأملى عليهم ما يقولون تفصيلًا- لا تفزعوا من حكمه فمهما كان الحكم ستقادون للسجن ومنه سأطلق سراحكم قبل تنفيذ أي حكم فيكم، فغرضنا من ذلك فقط هو تهدئة الناس ودرئ الفتنة، واعلموا جيدًا أن هذه هي فرصتكم الأخيرة للخلاص.

ترددوا ولم يعرفوا بم يجيبون ثم أومأوا بالموافقة.

أراد اختبارهم فأقام لهم محاكمة وهمية وأمر أن يؤخذوا إلى قاضٍ وهمي هو أحد جنوده فعندما وقفوا أمامه اعترفوا بما أملاه عليهم الوليد إلا واحد تردد برهة ثم قال:

- لا أعترف بشيء لم أفعله، إن أعترفت على نفسي فحتمًا سيكون مصيرى القتل أيضًا، ثم اعترف أمام القاضي الوهمي أن الوليد هو من أمرهم بهذا، وأملى عليهم ما يقولون، وكان يطمع في عطف القاضي ربما ينقذه من سجنه.

فلما سمع الوليد ذلك منه أمر بأن يقتل أمام أصحابه، فقتل أمامهم فدب الخوف في قلوبهم وارتعدت فرائصهم.

اجتمع الناس من كل حدب وصوب ليشاهدوا تلك المحاكمة المهيبة التي لم يعتادوا عليها في بلادهم الهانئة الهادئة، إنها أهم محاكمة مرت على البلاد، محاكمة قتلة الملك، اشرأبت الأعناق وتزاحم الناس وحُبست الأنفاس حين رأوا القاضي يصعد منصته ثم نادى القاضي على الجناة فأوتي بهم فواجههم بفعلتهم فاعترفوا وقصوا أمام الناس قصة القتل كما أملاها عليهم الوليد، تشاور القاضي مع مساعديه، فعلت همهمات الناس وساد الاضطراب والترقب، ثم نادى القاضي فى الناس للاستماع للحكم فسكنوا كأن على رؤوسهم الطير، فاستهل حديثه مستشهدًا بآيات وأحاديث عن العدل ثم نطق بالحكم وهو الإعدام شنقًا، فهلل

الناس وفرحوا وهنأ بعضهم بعضًا، فلما رأى المحكوم عليهم المشانق تنصب أرادوا العدول عن أقوالهم وأخذوا يصرخون، لكن لم يسمعهم أحد فصوت التهليل كان يطغى على أصواتهم المرتعشة.

ثم أشار الوليد لجنوده أن نفذوا، فنفذوا حكم الإعدام فيهم أمام الناس

ثم خفتت الأصوات حينما رأوا الوليد يصعد على منصة القاضي ليخطب فيهم ابتدأ مترحمًا على الملك ثم شكر الناس على حسن ولائهم للملك الراحل وأثنى على القضاء العادل وعلى رجال الشرطة الذين لم يتهاونوا في ضبط القتلة المذنبين، وعلى رجال الجيش الذين لولاهم ما كان أمن ولا أمان ولصارت ممكلتهم الهانئة مثل الممالك المحيطة المضطربة، وقال للناس:

- لا أخاطبكم اليوم بصفتي قائد الجيش فحسب بل بصفتي وزيرًا للبلاد أيضًا، فقد صرت منذ اللحظة وزيرًا للبلاد خلفا للوزير ابن يحيى، وقد ترقى وزير البلاد أبو بكر بن يحيى ليصير ملكًا للبلاد خلفًا للملك الحافظ رحمه الله، ويظل رجلكم الحكيم أبو حمزة المراكشي قائدًا للشرطة، وأترككم الآن تستمعون لكلمة ملك البلاد الجديد.

فصعد ابن يحيى خاطبًا في الناس.

كانت في المدينة أصوات خافتة تنادي بعدم أحقية ابن يحيى في المُلك، فهو ليس من من نسل بني الرزين ولا ينسب لآل هذيل، فلما بلغت تلك الهمهمات إلى الوليد أمر بعض رجاله أن يجوبوا طرقات المدينة ويندسوا بين الناس فمن وجدوه يتكلم بمثل هذا الكلام ضبطوه على الفور، فسجن عددًا كبيرًا منهم وسجن كل من كان ولاؤه للحافظ والحاكم في الشرق حتى اكتظت السجون بالمعارضين، وتمادى في إعمال القوة فيمن يخالفه الرأي جهرًا أو سرًا، وبدأ الناس يهابون بطشه، فاستكانوا ورضخوا، فلما رأى منهم الخنوع (١) فرض الضرائب على الأراضي والبيوت والحوانيت وجمع الجبايات وضيق على الناس في أرزاقهم،

(١) الخنوع: الذل والاستكانة.

(٢) الحيج: الفقر.

(٣) الهلكة: المجاعة.

(٤) الحفف: ضيق العيش.

حتى أنهكهم الحيج (٢)، وكادت تعصف بهم الهلكة(٣) ويقتلهم الحفف(٤) وانتعشت خزائنه التي كرسها لتقوية جيشه وتوطيد ملكه، فأغدق العطاء على أتباعه ومن يوالونه من قادة الجيش والشرطة ومن وجهاء المدينة وأغنيائها، وكان قد عمد إلى تسليح الجيش وبناء القلاع والحصون لحماية مملكته، وراسل الفرنج خاطبًا ودهم كي يستقوي بهم على الممالك المجاورة، ولما أحس الوليد ببغض الناس له بعث بعض أتباعه من الشعراء والخطباء من أهل النفاق في الأسواق والنوادي ومجالس السمر يمتدحون الملك ابن يحيى، ويتغنون بحكمته وحسن مشورته وقوة جيشه وأمن بلادهم في عهده والخير الذي ينتظرهم والمكاسب التي ستعود عليهم من غزو البلدان في ظل ولاية الوليد وأبيه.

بلغ خبر موت الملك الحافظ إلى الشرق ففزع الناس لما سمعوا الخبر وضجت المجالس بالحديث عن مقتل الملك على أيدي عيون التجيبي ردًا على هزيمتهم الأخيرة، فدب الخوف في النفوس وأحسوا باقتراب الخطر، ولما بلغ الملك أمر مقتل أخيه زاد حزنًا على حزن وهمًا على هم، ورقد في دائه العياء(١) وثقل لسانه وعجز عن الحركة وندم على الإحسان لأخته، وأقسم على القصاص فاستدعى ابن جهور وابن الكاتب وأمر ابن جهور أن يسير جيشًا يقاتل الوليد ويكون ابن الكاتب بكتائبه خط دفاع خلف جيش ابن جهور، فإذا تقدم ابن جهور يكون جيش ابن الكاتب عونًا له وسندًا، وإن هزم يكون الجيش الثاني درعًا للقصر وأهله، فمضيا يجهزان الجيش ويعدان العدة.

في القصر جلس الوليد يحادث أبواه ويتعجل أمر زواجه من رقية فقالت أمه:

- اصبر ولا تتعجل الأمر، فلا يجب أن يدخل الفرح من باب القصر حتى لا يشك الناس في أمر موت الحافظ، فلا بد وأن يسيطر الحزن على البلاد ويكسو أرجاء القصر، ولا تقام الأفراح ويتم الزواج إلا بعد أن ينسى الناس أمر موت الحافظ، وتنسى هي أيضًا موت أبيها.

قال ابن يحيى:

- ولم العجلة يا ولدي فقد كنا نتعجل الزواج كي نضمن بمصاهرتك للحافظ أن تصير لك الولاية يومًا وتعتلي عرش البلاد، أما وقد جاءتك الولاية مرغمة ودان

(١) داء عياء: لا شفاء منه.

لك العرش فلا حاجة لنا الآن لهذا الزواج.
- زواجي بها الآن ليس من أجل كرسي أو جاه، إنه ثأر بيني ومن فضلته علينا.
جهز ابن جهور وابن الكاتب جيشيهما من بعض جنود الملك المخلصين وحراس القصر ومن أهل المدينة الذين انضموا إليهما وممن فر هاربًا من الوليد وبطشه ووفر لهما صاحب بيت المال ما يحتاجان إليه من الأموال لتسليح الجيش وإعداد العدة والعتاد، وتهيأ الناس للحرب،ثم خرج ابن جهور بجيشه فالتقى بجيش الوليد في منتصف الطريق بين الشرق والغرب، وتفاجأ ابن جهور بقوة جيش الوليد وكثرة عددهم وقوة سلاحهم، دارت معركة غير متكافئة بين القوتين واستبسل ابن جهور وجيشه لكن مع الوقت خارت القوى ونضبت المؤن وضعفت الروح ومالت الكفة كثيرًا إلى الوليد الذي حقق نصرًا سهلًا وقتل ابن جهور وهزم جيشه هزيمة ساحقة، فتراجعت فلوله وانضمت إلى كتائب ابن الكاتب المرابضة حول المدينة.
مضى الوليد تقوده أطماعه لدخول مدينة السهلة فوجد جيش ابن الكاتب يدافع ببسالة عن المدينة وعن القصر، وأمطرهم الرماة بالسهام فتفاجأ جيش الوليد بهذا الجيش الباسل وحاصر المدينة أيامًا ورماها بالمجانيق لكن استعصى عليه دخولها، فاكتفى بما حققه من نصر وانسحب بجنوده تاركًا بعض الكتائب تحاصر المدينة.
كان موت ابن جهور بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير، كان الملك يحبه ويأتمنه ويعتمد عليه في إعادة بناء جيشه ويرتكز على قوته وخبرته في الحروب وولائه له، فحزن الملك لموته كثيرًا وأيقن اقتراب الخطر من القصر وبدنو أجله.
نام على فراش الموت وأمر باستدعاء ابن الكاتب وأملى عليه وصيته بأن يوزع ميراثه على ولده وزوجته وأبناء الحافظ وزوجته، وجعل لابن الكاتب حظًا وفيرًا من تركته جزاء رعايته لولده ووصايته عليه، ثم طلب منه بعين الرجاء ألا يترك ولده ولا يدع يد الوليد تطوله ويدفع عنه أي سوء.
فوعده ابن الكاتب أن يرعاه ويحميه وأن يحسن وصايته ولا يتركه حتى يمكنه من وراثة ملك أبيه وجده.

كان يلفظ أنفاسه بصعوبة وقد اجتمع حوله الأطباء، فلما اشتد نزعه نظر حوله إلى أهله المجتمعين بجوار فراشه وأشار لولده أن ينام إلى جانبه فاحتضنه وشهق شهقة فارق فيها الحياة، فارق الحياة إلى المقام الأمين حيث لا غدر ولا خيانة ولا دماء، ترك ملكه وذهب إلى من لا يزول ملكه، مات حتف أنفه(١) بعد أن أمضى عمره على ظهور الخيل وفي ساحات القتال.

عم الحزن أرجاء البلاد فلم يكد الناس يفيقون من خبر موت الحافظ حتى جاءهم خبر موت الحاكم، فبكاه العامة والدهماء(٢) بكاءً حارًا، فقد كانوا يحبونه وينعمون في كنفه بالعدل والسلام، فاكتست المدينة بالسواد وأغلقت الحوانيت والأسواق ودب الخوف في القلوب من مصير مجهول، وحزن عليه ابن الكاتب كثيرًا وأحس بفراقه أنه يتيم للمرة الثانية، لكنه حاول أن يتظاهر برباطة الجأش أمام عبد الله وأمه، وأمر أن يقام له ضريح في بستان القصر يزوره ولده في أي وقت شاء، ثم أمر ببعث من ينادي في الناس كي يجتمعوا في عند أبواب المدينة حيث الجيش المرابط في مواجهة حصار جنود الوليد، وكان يرمي بذلك عدم خور(٣) الهمم وفتور العزائم، فتجمع العامة بجانب الجنود ووقفوا مترقبين وصوله، حتى وصل ومعه الملك الصغير ثم صعد فيهم خاطبًا:

"بسم الله الرحمن الرحيم، كل نفس ذائقة الموت، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة، وإنما الموت منتهى كل حي، لم يصب مالك من الملك شيئًا، هكذا قال الملك في فراش موته، يا أهل السهلة شعبًا وجيشًا، في بداية حديثي أواسيكم وأواسي نفسي في وفاة جلالة الملك الحاكم بن هذيل ملك البلاد، ذلك الرجل الذي تولى أمركم زهاء الأربعين عامًا فما حكم إلا وعدل وما قال إلا صدق وما وعد إلا وأوفى وما سئل إلا وأعطى وما استؤمن إلا وأدى، فكانت ولايته رخاء وسنونه رغدًا وعهده أمانًا، لكنه استخلفكم في تلك الأرض وحمّلكم أمانتها فإن أبيتم حملها استحقها من هو بها أجدر وعليكم أقدر، يا أهل شنتمرية عامة والسهلة خاصة قد كان من آخر ما قاله ملككم الموقر في فراش موته:

---

(١) مات حتف أنفه: أي مات على فراشه بلا ضرب أو قتال.

(٢) الدهماء: عامة الناس وسوادهم.

(٣) خور: ضعف.

ولو كانت الحياة تدوم لأهلها لكان رسول الله حيًا وباقيا

فما لي أرى الخوف في عيونكم والجزع في صدوركم والتهدج(١) في حناجركم والهم فوق أكتافكم، إن كان موت الملك قد أحرق قلوبكم إلى هذا الحد فصرتم أرمدة تقذفها ريح العدو فولولوا مثل النساء إن شئتم أو شقوا جيوبكم، وألقوا سيووفكم واتركوا مواضع حراستكم والزموا بوتكم وانتظروا شفقة من عدوكم أو قضاء الله فيكم، يا أهل المدينة إن العدو خلفكم يحاصر مدينتكم ويتحكم في أقواتكم ممنيًا نفسه بخضوعكم إليه، فلا يغركم جميل قولهم وتأمينكم إن استسلمتم فأولئك ما لهم عهد ولا ذمة، فما أنتم أعز عليهم من أهلهم الذين خانوهم واستباحوا دماهم، فاعتصموا بالصبر وتسلحوا بالإيمان وتحصنوا بقوة العزيمة وتقشفوا واقتصدوا لا يجزعنكم عوز ولا مخمصة(٢)،

وتزودوا بالماء والجريم(٣) فذاك طعام نبيكم صلى الله عليه وسلم، فإن تربطوا على بطونكم بالحجارة اليوم خير من أن تُربطوا في الحجارة غدًا، يا أهلي الكرام اسمعوني جيدًا، لقد أوصى الملك قبل موته بالملك لابنه الملك عبد الله بن الحاكم خليفة له ووريثًا في ملكه، وقد وكلني الوصاية عليه لحين يشتد عوده ويبلغ رشده، وإني أشهدكم الآن على ذلك فمن اعترض على ذلك فليغادر غير مأسوف عليه ومن رضي بحكم الملك فليبق في مكانه ليبايع الملك الجديد".

كانت كلمات ابن الكاتب قد شحذت الهمم من جديد وأعادت الأمل للنفوس فدبت الحماسة في قلوبهم وهتفوا جميعًا للملك الجديد بحناجر قوية أسمعت جنود الوليد المحاصرين للمدينة فبدأوا ينصبون مجانيقهم لضرب الأسوار، فأمر ابن الكاتب الناس بالانصراف وحث الجميع على الاستعداد واليقظة.

عاد ابن الكاتب إلى القصر برفقة الملك الجديد وزمزم، قال له زمزم:

- أحسنت القول أيها الوزير.

ضحك ابن الكاتب رغم قلبه المكلوم وقال:

- أتقصدني أنا يا زمزم؟

---

(١) التهدج: هو ارتعاش الصوت من خوف أو بكاء.

(٢) مخمصة: مجاعة.

(٣) الجريم: التمر اليابس.

- أجل يا سيدي.
علت ضحكات ابن الكاتب ووكزه في صدره قائلًا:
- لست وزيرك ولا سيدك يا زمزم ولو لم تناديني بصاحبك كما كنت تفعل من قبل فلآمرن الحراس أن يضربوك كيوم الشجرة.
ضحك زمزم وقال:
- لا يا صاحبي لا داعِ لذلك.
ذيع في الغرب خبر موت الملك الحاكم، قالت صفية لولدها:
- ألم أقل لك أنك ستكون الملك هنا وهناك؟ لم يعد هنا ولا هناك ملك سواك، وكلها أيام وتضم إليك السهلة وتكون بذلك سائر المملكة في قبضتك.
- صبرًا يا أماه فجيشي منهك على أطراف سرقسطة فهم لا يكفون غاراتهم علينا من أجل استعادة أراضيهم.
- أريد أن أحيا فقط لأرى اللحظة التي أراك فيها ملكًا لشنتمرية.
ضحك الوليد وقال:
- ما أضيق خافقك(١) يا أماه، فسوف يصير ابنك ملكًا لسائر الأندلس.
بلغ الخبر رقية فنزل عليها كالصاعقة، فلم تكد تصيبها مصيبة إلا وتأتيها في عقبها الأخرى، بكت كثيرًا وجزعت نفسها وأحست بانقطاع الأمل فقد كانت تعقد كل آمالها على عمها الملك كي ينقذها من قبضة الوليد ويقتص لأبيها، كانت تحب عمها كثيرًا فحزنت عليه أشد الحزن وتدهور بها الحال حتى فارق النوم جفنيها، فما اكتحلت عينها بغمض(٢) ولا هنأ جنبها بوثر(٣)، فكانت إذا نامت برهة تستيقظ صارخة تهذي كما لو لدغها عقرب، كاد هول ما صادفها في تلك الفترة القليلة أن يذهب عقلها ويسلب رشدها، واشتد عليها المرض حتى صارت تدخل في نوبات من فقدان الوعي لا تستفيق منها إلا بصعوبة وبحضور الأطباء الذين لم يفلح جهدهم في علاج الأميرة المريضة.
لما جن عليه الليل جلس وحيدًا حزينًا يحدث نفسه.

---

(١) الخافق: الأفق.

(٢) اكتحلت عينها بغمض: كناية عن النوم.

(٣) الوثر: الفراش الناعم ويقال له أيضًا وثير.

كيف أواسي الناس وأحثهم على الصبر وأنا أشدهم حزنًا وأجزعهم قلبًا؟
كان موت الملك قد خلف في قلبه جرحًا لا يندب(١)، فقد رأى في الملك ما كان يرى في أبيه من العطف وحب العلم وصدق النية وصفاء القلب، وتذكر كيف فقد كل أحبته في وقت قصير فاغتم وسكبت دموعه وأحس باشتياق إلى آخر أمل له وهي حبيبته التي كان يشفق عليها مما جرى لها من موت أبيها ثم موت عمها، كانت نفسه تتوق إليها وكان يمني نفسه بنظرة منها.
كان جالسًا مستغرقًا في غمه حين جاءه زمزم فقال:
- دموع الحزن أم دموع الحب يا صاح؟
- كلاهما يا زمزم.
- رفقًا بحالك يا ابن الكاتب، أما زلت لا تنساها؟
- تنازعني نفسي إليها كل صباح ومساء.
- والله يا صاحبي لا أقل عنك وجدًا، فكم أشتاق إلى أمي وسليمى.
- لقد خطرت ببالى فكرة نرى بها أحباءنا، ونستطلع بها أخبار عدونا.
- أراك قد أتعبك السهر فبدأت تهذي، كيف ذلك وهم في سجن الوليد؟
- لا أهذي فالعشاق دائمًا ما يخاطرون بحياتهم من أجل من يحبون، فلم لا نكون منهم؟ سوف ترى أنت والدتك ومحبوبتك، وأرى أنا حبيبتي التي التاعت(٢) نفسي شوقًا إليها.
- وكيف ذلك يا أذكى الأذكياء؟
- اسمع يا زمزم.
في تيروال كانت أحوال الناس مذرية، فكان الإملاق قد تمكن منهم والخصاصة(١) قد طالت بيوتهم جميعًا، فأصبح مجدوفًا عليهم العيش(٢)، وأنهكهم الإكداء(٣) والمرض، وتحسرت قلوبهم لما رأوا خير المدينة يذهب في بطون الوليد ووليجته(٤) من الوجهاء والأغنياء وفي بناء القلاع والحصون، ذهب بعض من المتذمرين إلى قاضي المدينة واشتكوا إليه الفاقة وأخبروه أن الوليد يشتري منهم الغلال والسلع

(١) يندب: يلتئم.
(٢) التاعت: احترقت.

بأسعار زهيدة ويحتكرها ثم يبيعها لهم في متاجره ومتاجر أصحابه بأسعار تفوق طاقتهم، وأنه جعل ضريبة على أي سلعة تستقدم من خارج المدينة، واشتكوا إليه شدة جنوده وغلاظة جلاوزته(٥) وأخبروه بنية الكثيرين من أهل المدينة في الهجرة فرارًا من الظلم والفقر،

لما بلغ الوليد ذلك تحجج للقاضي بحاجة المدينة للمال في فترة الفتوحات تلك وطلب منه أن يحثهم على الصبر ودعم الجيش فكل فتح أو نصر سيتم سوف يجلب معه المغانم والخيرات، ثم قال له:

- الرعية يا قاضي المدينة لا يرون ما نرى، ولا يهتمون لأمر جيش ولا شرطة، فلا يهمهم إلا ملء البطون والفروج، ولو ذاقوا رغد العيش ووفرة المال لتمردوا علينا.

ثم أمر جنوده بضبط كل من يهمهم بذلك فضبطوا بعضًا منهم فأعدمهم بتهمة تأليب الرعية على الحاكم والدعوة للخروج عليه، فارتدع الناس ورضخوا مرة أخرى.

بدأ الليل يسدل ستائره وينشر ظلاله ويكسو الكون بسواده، حين شاهد جنود الوليد المرابطون أمام مدينة السهلة يحاصرونها شيخًا أبيض اللحية منحني الظهر يمشي مثقل الخطى متكئًا على عكاز يجر في يده عبدًا أسود اللون قد ربطه في حبل صغير وفي يده سوط يضرب ذاك العبد بالسوط ويسبه ويلعنه، أوقفه الجنود.

- قف يا هذا، من أنت؟

- أنا أعمل نخاسًا يا ولدي، أبيع العبيد في الأسواق، وقد جئت إلى تلك المدينة من جنوب المملكة منذ عدة أيام فقصدت السوق لأبيع العبيد وأتربح من بيعهم، فأكرمني الله وبعت كل من كان معي إلا هذا العبد الأحمق لم يشتره

(١) الخصاصة: الفقر الشديد.

(٢) مجدوفًا عليهم العيش: ضاق عليه العيش.

(٣) الإكداء: الفقر بعد غنى.

(٤) وليجته: بطانته.

(٥) جلاوزته: رجال شرطته.

أحد فاضطررت أن أقيم في السهلة أيامًا حتى أجد من يشتريه، فدارت الحرب وانشغل الناس وانقطعت الطرق فلم أستطع الخروج من المدينة، فلما هدأت الحرب وسكن الناس أردت أن أنجو بحياتي وأعود إلى بلدتي وأعتزل مهنتي تلك، وأتاجر في الإبل أو الحمير ربما تنفعني أكثر من هذا الغبي، فقد مللت مهنتي تلك وزهدت مالها هذا- وأخرج من جيبه صرة مليئة بالذهب - فحتى مالها غير مبارك ولا أريده أن يدخل جيبي سأرميه في أقرب نهر يقابلني.

لما رأى الجندي المال قال:

- ولِم ترميه يا شيخ؟ أعطني إياه فأنا أحب المال قليل البركة.

فأعطاه له ففرح بالمال وسمح لهما بإكمال السير، فما أن ابتعدا عن عيون الجنود حتى انفجرا ضحكًا ثم عاتب زمزم صاحبه على ثقل يده في الضرب والتمادي في سبابه فرد ابن الكاتب قائلًا:

- عذرًا يا صديقي، ولكن الله يحب إذا عمل المرء عملًا أن يتقنه.

أخذا يتشاجران ويسخران من بعضهما البعض فزمزم يسخر من الصبغة البيضاء التي صبغ بها ابن الكاتب لحيته ورأسه وثياب التجار التي يرتيدها، وابن الكاتب يسخر من ثياب زمزم البالية وجسده العاري، حتى بلغا أول حاضرة فابتاعا فرسًا بما تبقى معهما من مال ثم ركباه وطارا متجهين إلى الغرب.

انتظرا يوم السوق ثم مضيا إلى تيروال وسط التجار الواقفين على أبواب المدينة منتظرين الإذن من جنود الوليد، فسمحوا لبعض منهم بالدخول وحجبوا البعض الآخر من تجار الغلال والأغنام وكان ابن الكاتب وصاحبه ممن سُمح لهم بالدخول، فدخلوا المدينة بنفس هيأة النخاس والعبد، كان رجال الشرطة يجوبون الأسواق والطرقات فأراد ابن الكاتب أن يبعد الشكوك عنه فوقف في سوق النخاسة وصعد منصة التجار، همس زمزم في أذنه قائلًا:

- احذر أن يتقدم أحد لشرائي فتتورط وتبيعني.

قال ابن الكاتب:

- اطمئن يا صديقي فأنت بضاعة كاسدة.

ثم أخذ ينادي:

- من يشتري هذا العبد الآبق، عبد قد أتعبني ولا أجد من يشتريه فهل تنصفوني فيه، يؤمر فلا يأتمر وينهى فلا ينتهي، ضعيف البصر ثقيل السمع سليط اللسان، إذا حملّته شيئًا أوقعه وإذا أعطيته مالًا ضيعه وإذا جلدته بالسوط هكذا – وأخذ يضربه- لا يجدي معه الضرب.

مال زمزم على أذنيه وهمس قائلًا:

- خف يدك ولا تأخذك الجلالة.

فرد ابن الكاتب صارخًا:

- اصمت أيها العبد العاصي.

وأخذ يحتد عليه بالضرب، وكان الناس ينصرفون عنه ولم يتقدم أحد لشرائه، ظلا هكذا حتى انتهى السوق فأرادا أن يبحثا عن مكان يبيتان فيه ليلتهما، فسألا الناس عن مكان فلم يجدا بغيتهما إلا لدى شيخ كبير يعمل صيادًا للسمك فأخذهما إلى كوخه الصغير على النهر عند أطراف المدينة، نظير بعض من المال ثم تركهما في الكوخ وذهب لينصب شباكه في النهر ككل ليلة.

وما أن اطمئنا إلى عدم وجوده حتى أخذ زمزم السوط من ابن الكاتب وأخذ يضربه وابن الكاتب يضحك وزمزم يضربه ويقول:

- لقد كثرت ديونك يا ابن الكاتب، سأوجعك كما أوجعتني.

في الليل جلسا يتسامران مع صاحب الكوخ، فلما عرف أنهما أغراب اطمأن إليهما ونصحهما بمغادرة البلاد هربًا من بطش الجلاوزة، فاستفسرا منه عن ذلك فأخبرهما بما يفعله الوليد وجنده، ثم قال له ابن الكاتب:

- ولم لا يتصدى له أحد من بني هذيل ويكفي الناس بطشه وظلمه؟

- لقد مات الملك الحاكم في الشرق ومات أخوه الحافظ في الغرب ولم يتبق من نسلهما إلا صبي صغير للحاكم في الشرق وأبناء صغار للحافظ الغرب.

- وأين أبو حمزة المراكشي من كل ذلك؟

- أبو حمزة رجل حكيم يحبه الناس وقد كان يدًا للملك الحاكم في الغرب ووالياً عليناً فنعمنا في عهده بالعدل والرخاء، لكن منذ جاء الوليد وقد عمد إلى إخفات نجمه وتقليص دوره وصرف الناس عنه، فهو مغلوب على أمره ولا

يقوى على معارضة الوليد وآله، ولولا خوف الوليد من ثورة الناس عليه لقتله كما قتل الحافظ.

- وهل قتل الوليد الحافظ؟

قال الشيخ مضطربًا:

- كفى يا هذا، فإني رجل كهل أسعى على رزقي ورزق عيالي، فلا أتكلم في أمور الحكم ولا أصبر على جلدة واحدة من جنود الوليد.

- عذرًا يا سيدي لكني سأسأل سؤالًا أخيرًا.

أومأ له الرجل بالموافقة على مضض فقال:

- لقد كان للحافظ فتاة كبيرة، وكانت مخطوبة للوليد، أظنه الآن تزوجها.

- لم يتزوجها، إنها الآن مريضة بداء عضال وقد احتار فيها الأطباء، فلما رأى ذلك ملك البلاد أبو بكر بن يحيى بعث إلى صاحب قرطبة في أن يرسل إليه بكبير الأطباء هناك وأظنه سيصل اليوم أو غدًا.

امتن ابن الكاتب للرجل واعتذر له عن كثرة السؤال.

وفي الصباح تجولا في طرقات المدينة يراقبان الناس ويستمعان همهمتهم فأكدت ثرثرة الناس كلام الصياد، وبينما يسيران إذ لمح زمزم أمه واقفة عند بائع الفخار تشتري الأواني والفخار، هم زمزم أن يجري نحوها فأمسك ابن الكاتب يده قائلًا:

- اهدأ يا زمزم ستكشف أمرنا ولن يرحمنا جنود الوليد.

سقطت دمعة من عين زمزم فقد كان يشتاق إلى أمه كثيرًا فأحس ابن الكاتب بما في قلبه وقال له:

- اصبر يا صديقي إن فرج الله قريب.

- وكيف يا ابن الكاتب والأمور قد بلغت هنا إلى هذا الحد، ألا ترى الغم والحزن في عيون الناس، يا صديقي لو كان الحصى ينطق لاشتكى ظلمهم وبغيهم.

أطرق ابن الكاتب يفكر ثم خطرت على باله فكرة، فقال:

- سوف تدخل القصر اليوم يا زمزم وترى أمك.

-وكيف ذلك؟ هل ستبيعني للوليد؟

ضحك ابن الكاتب وقال:

- سندخل في هيئة طبيب قرطبة وصبيه.
- أجننت يا ابن الكاتب؟ إنك تجازف مجازفة كبرى، بعض الناس هنا صارت تعرف وجوهنا كما أن طبيب قرطبة لا بد وأنه سيأتي اليوم أو غدًا.
- سندخل ونخرج قبل أن يأتي طبيب قرطبة، ولم يرنا أحد من القصر حتى يعرف وجوهنا.
ذهبا إلى أحد العطارين واشتريا أعشابًا طبية واشتريا زيًا جديدًا وعدلا هيأتهما ولبس كل منهما عمامة ودثارًا، وركبا فرسهما واتجها نحو القصر ليلًا، فلما بلغا القصر نزلا وربطا فرسهما وأدخلهما الحارس على الملك، وكان ابن الكاتب يبدو كشيخ كبير بلحيته المصبوغة بالشيب وظهره المنحني وعصاه التي يتوكأ عليها ونظرته للأرض التي يتجنب بها أعين الناظرين وكان زمزم يتخفى في زى فتاة ويضع على وجهه دثارًا حتى لا يعرفه أحد، دخلا على الملك في مجلسه وعرّفه ابن الكاتب بنفسه وأنه كبير أطباء قرطبة وهذه ابنته تساعده وتتعلم منه الطب، فأخبرهما ابن يحيى بأمر مرض الأميرة ووعدهما بالأموال والعطاءات إن استطاعا أن يداوياها، ثم أمر أن يؤخذا إلى غرفة الأميرة، وهناك كانت صفية وجاريتها أم زمزم في غرفة الأميرة، فلما دخل ابن الكاتب أمر بأن ينصرف الجميع من الغرفة وأشار إلى أم زمزم وقال:
- أنت أحضري لي إناء واملئيه ماء.
جاءت أم زمزم بالماء فأمرها أن توصد الباب، ثم كشف زمزم عن وجهه، فعرفته أمه فجرت عليه بلهفة واحتضنته وبكت من شوقها إليه وقالت:
- كنت على يقين من أننا سنلتقي يا ولدي، وقد طلبت من صفية أكثر من مرة أن تستدعيك إلى هنا لتعمل في القصر لكنها رفضت بسبب ولائك للملك وصداقتك بابن الكاتب.
- لن آتي إلى هنا يا أماه بل أنت ستأتين معي.
- الأمر عسير جدًا يا ولدي فأنت لا تعلم شيئًا عن بطش الوليد وأمه، لقد ازدادا ظلمًا وافتراءً منذ أن استقرا على العرش.
ثم هرعت أم زمزم إلى الباب وغطت ظهر الباب بستار وقالت:

- إن صفية غالبًا ما تأمر جواريها أن يراقبن ما يجري في غرفة الأميرة عبر ثقب الباب،

كانت الأميرة نائمة فاقدة للوعي وكانت تهذي بكلام غير مفهوم وقد تصبب العرق من جبينها وسرت في جسدها رعشة بين الحين والحين فأخرج ابن الكاتب بعض الأعشاب من حقيبته وصنع شرابًا سقى به الأميرة ووضع نشوقًا في أنفها فبدأت تفتح عينيها، نظر إلى وجهها الأقمر وأخذ يراقب عينيها اللتين تبدوان في ضوء القنديل الخافت كأنهما جمانتان(١) تبرقان حسنًا وجمالًا، فتحت عينها على وجه تألفه، حاولت تستجمع قوتها وتدقق نظرها فرأت ذاك الوجه المبتسم يمسك يدها بلهفة وشوق فقالت:

- محمد؟

- نعم يا حبيبتي، أنا محمد.

ثم احتضنها بشغف، احتضنها كمن يريد أن يدخلها بين ضلوعه ويحفظها بداخل قلبه، بكت في حضنه بكاءً مريرًا وأجهشت حتى أبكت زمزم وأمه ثم قالت:

- كم أشتاق إليك يا محمد وإلى مجالس علمك وحلو حديثك.

قال وهو يمسح على جمائر(٢) شعرها الذهبي:

- يعلم الله يا حبيبتي أنك بين كبدي وخلبي(٣).

قالت أم زمزم بعيون معتبرة:

- أدام الله جمعة ما بينكما(٣)

قالت رقية بصوت متقطع:

- أنقذني يا محمد أرجوك، فأنا أعيش في جحيم مذ جئت إلى هنا، أعيش في سجن وأصبحت فريسة سهلة للوليد، أرجوك أخرجني من هنا فما عدت أطيق المكوث ولا أقوى على الصبر.

انفطر قلبه أمام توسلاتها فقال وهو يغالب عبراته:

---

(١) جمانتات: الجمان هو حب اللؤلؤ وواحدته جمانة.

(٢) جمائر: خصلات الشعر وضفائره.

(٣) خلبي: الخلب هو حجاب بين الكبد والصدر.

- هل آذوك بشيء يا حبيبتي؟
- لم يسلم أحد من أذاهم يا محمد، إنهم يجمعون مكر الأجرين(٢)، دبروا لقتل أبي ويدبرون الآن لقتلك وقتل عبد الله، لقد طمس حب الملك والسلطان على قلوبهم حتي أصمهم وأعمى أبصارهم.
ثم سألته عن عبد الله وزوجة عمها فطمأنها عليهما وأخبرها بوصية عمها إليها وإخوتها وأنه سامح أباها قبل موته لما علم بأمر المكيدة التي دبرتها لهما أختهما وابنها اللعين، فاطمأنت لما علمت أن عمها سامح أباها وكانت الدماء قد بدأت تجري في عروقها من جديد وعادت إليها روحها وتدفقت حمرة الدماء في خديها ونسيت مرضها وحزنها وعادت إليها روحها واستضاء وجهها مرة أخرى.
لما رأى ابن الكاتب تهلل وجهها قال مبتسمًا:
- أعدك يا حبيبتي أن أعود لأخرجك من هنا، لكني جئت اليوم على عجل لما علمت
بمرضك، عزمت على مدواتك ولو كان دواؤك بين سحري ونحري(٢)، فاحتلت لكي أراك وأطمأن عليك، أردت أن أشم عطر أنفاسك وأسشعر دفئ قلبك الرقيق يا من تعلمت معك معنى الحب والوفاء، سأعود لأنقذك وهذا وعدي إليك.
أمسكت بيديه كما لو كانت تمتن إليه،
قاطع زمزم حديثهما مخاطبًا أمه:
- كيف حال سليمى يا أمي؟
قالت بلهجة غاضبة:
- ألم آمرك أن تنسى تلك الفتاة؟ هي لا تقل عنهم مكرًا وشرًا، يستخدمها الوليد عينًا له في جناح النساء، وتتقرب هي إليه بوشايتها وخيانتها.
قالت رقية:
- أجل يا زمزم إنها كذلك، وحاولت كثيرًا أن أبعدها عن هنا لكن صفية تصر على وجودها.
بدا الحزن على وجه زمزم فأراد ابن الكاتب تلطيف الأجواء فقال:

---

(١) أدام الله جمعة ما بينكما: أي أدام الله الألفة بينكما ولم يفرق بينكما.
(٢) الأجران: هما الإنس والجن.

- عندما نأتي لننقذ الأميرة سنسبي كل جواري القصر فتختار منهن من تشاء.
ضحكوا جميعًا وعادت الابتسامة إلى شفتيها بعد أن غابت عنها كثيرًا وسخرت من هيئتهما وزي الفتيات الذي يرتديه زمزم، فلما اطمأن ابن الكاتب إلى تحسن حالها قال:
- يجب أن نرحل قبل أن يأتي طبيب قرطبة وينكشف أمرنا.
احتضنها بلهفة وقبل رأسها ويدها ثم استأذنها في الإياب وكرر وعده إليها أن يعود لينقذها ثم طلب من زمزم أن يغطي وجهه وهما بالخروج.
فقابلتهما صفية على الباب فطمأنها الطبيب على الأميرة، فلما رأت الأميرة قد أفاقت وعادت إليها روحها واستضاء وجهها من جديد قالت:
- يا لك من طبيب بارع سوف آمر لك بكثير من العطاء.
فشكر لها وانصرف، ثم مضيا يسيران فلما نزلا قابلتهما سليمى وكان زمزم يشتاق إليها كثيرًا فنادى عليها مندفعًا لا إراديًا:
- سليمى!!
فنظرت إليه في عجب وأكملت سيرها، وكز ابن الكاتب زمزم في جنبه وقال:
- أمجنون أنت؟ لقد كشفت أمرنا، لا بد وأنها قد تعرفت علينا.
جدا (١) في سيرهما يريدان الخروج، قابلهما أحد الحراس وقال لهما:
- مولاي الملك ومولاي الوزير قد أمراني أن آخذكما إلى المجلس ليجزيكما أجركما .
فقال ابن الكاتب:
- اشكر له فأنا لا آخذ أجرًا على مداواة الناس.
وخرجا يلتمسان فرسهما ليهربا قبل أن ينكشف أمرهما.
كانت سليمى قد أسرعت للوليد تخبره بأمرهما فنادى حراسه على الفور أن يوقفوهما، وفي خروجهما من بوابة القصر استوقفهما الحراس وذهبا بهما إلى الوليد، فقال:
- لم لا تنتظر لتأخذ أجرك يا طبيب؟
- إني أداوي الناس لوجه الله يا سيدي، لا أريد منكم جزاءً ولا شكورًا.

(١) بين سحري ونحري: السحر هو الخصر والنحر هو العنق ومعناها أي لو كان دواؤك بين أجزاء جسدي.

نظر إليهما بتمعن ودقق النظر وقال:
- من أي البلاد أنتم؟
- من قرطبة.
لم يكد ينتهي من كلمته حتى نادى الخادم:
- رجل يقول إنه طبيب قرطبة بالباب يا سيدي.
مد الوليد يده فأنزل الوشاح من على وجه زمزم وقال:
- ولم تخف تلك الفتاة جمالها؟ جميل أنت في زي النساء يا زمزم، ثم مد يده لوجه ابن الكاتب رافعًا إياه ليرى ملامحه وقال:
- أتجرؤان على خداعي؟ لقد كنت أريدكما، وجعلت لرجالي حول السهلة مكافأة لمن يأتيني بكـما، فجـئتما إلي بأقدماكـما، اختارا قتلة أقتلكـما بها، ولم أقتلكـما؟
سأعذبكما حتى تتمنيا الموت، فكيف أضيع فرصة انتظرتها منذ زمن، ثم نظر إلى ابن الكاتب قائلًا:
- أتذكر يا هذا حين أنقذك الملك من يدي ورماك في السجن لتنجو من سيفي، ها قد جئت تحت سيفي وبقدميك هاتين، أترى عدل الله وإنصافه.
نظر إليه ابن الكاتب نظرة احتقار ولم يجبه.
نادى على الحراس صارخًا:
- خذوهما إلى حديقة القصر، واربطوهما تحت شرفة الأميرة، لترى فتاها وهو يصرخ مثل النساء.
أخذهما الحراس وأقاما لهما مقصلتين في حديقة القصر وربطاهما ونزعا ثيابهما، فأمر الوليد الجلاد أن يضربهما بسوطه وجعل خلف الجلاد جلادًا آخر حتى إذا توقفت يد الأول عن الضرب جلده الثاني.
نظرت الجارية فجر من النافذة فأخبرت الأميرة أنهم يضربون الطبيب، فهرعت نحو النافذة ومعها أم زمزم فرأتا ابن الكاتب وزمزم يجلدان ومع كل ضربة سوط ينفطر قلباهما وتنحدر دموعهما، كان زمزم يتأوه ويصرخ مع كل ضربة تدك جسده النحيل بينما كان ابن الكاتب يكتم التأوه ويفتعل الجلد حتى لا

يشمِّت الوليد فيه، ثم وقعت عيناه على نافذة الأميرة فرآها واقفة تبكي فنسي ما به من ألم ونظر إلى عينيها وغاب بسحرهما عن الدنيا لا ينتبه لجلدات الجلادين ولا يسمع أصوات السبابين، كانت الأميرة تحتضن أم زمزم وتبكيان بكاءً مريرًا، وكانت فجر تهدهدها وتصبرها، فقد كان ابن الكاتب هو آخر أمل لهما في الخروج من هذا السجن، وها هو أملها الوحيد قد انقطع وأصبح على حافة الموت، علا صوت الجلدات وزاد معها الأنين ووقف الوليد محمسًا الجلادين ويقول لابن الكاتب:

- من ينقذك مني الآن؟ مات الذي حماك مني المرة الأولى، أتجرؤ على مناطحتي وتحريض خطيبتي عليّ؟ ثم تأخذك الجرأة لتلحق بها إلى هنا، وتصطحب معك هذا الأبله، والله لن أترككما حتى ينفصل لحمكما عن عظمكما.

وظل يضربهما حتى كل الجلادون وسالت الدماء منهما وسكنت أصواتهما وفقدا وعييهما من شدة الضرب، فأمر الوليد أن يظلا مصلوبين هكذا ولا يؤتى لهما بطعام ولا شراب ودخل إلى القصر مع ندمائه وقال:

- اتركوهما هكذا إلى الصباح، فإن بقيت الروح فيهما إلى الغد نفكر لهما في عقاب جديد.

ثم قهقه ودخل إلى مجلس اللهو يحتفل مع ندمائه بهذا النصر العظيم، وأمر الحراس أن يشددوا الحراسة عليهم.

انتهزت الأميرة غياب الوليد وأرسلت لهما مع جاريتها فجر إناءً به لبن وآخر به ماء لكن منعها الحراس واعتدوا عليها وكسروا الأواني فانسكب ما بهما على الأرض وعادت الجارية مذعورة، وكان أبو حمزة قائد الشرطة يرى كل هذا ولم يكن راضيًا عما يفعله الوليد وآله من غدر بالجميع وقتل وظلم حتى هذين المسكينين لم يسلما من شره، أخذ الماء من الجارية وسقاهما وقال للحراس:

- لقد أمرني الوزير للتو أن أسوقهما للسجن.

ثم فك وثاقهما وساقهما إلى خارج القصر، حاول عباد أن يمنعه فأخبره بأنه أمر سيده، فأسرع عباد إلى الوليد، وكان أبو حمزة قد خرج بهما إلى خارج القصر فجلب لكل واحد منهما فرسًا وله آخر ثم ركبوا، وكان كلما مر على حراس من

جنوده تظاهر أنه يطمئن على الأمن وهمس لهم أن الوزير أمره أن يخرج بهما إلى الصحراء فيقتلهما هناك، فكانوا يطمئنون ويتركونه يمر، كان عباد قد أسرع إلى الوليد في مجلسه فاستأذن في الدخول عليه فيه - وكان مستغرقًا في سُكره - فتجاهل الوليد طلب الحاجب بدخول عباد واستمر في سكره ولهوه، ثم حاول عباد مرة وأخرى حتى اغتاظ الوليد وقال للحاجب:

- أدخله إلي.

دخل عباد يلفظ أنفاسه من الجري، فعنفه الوليد قائلًا:

- ماذا تريد أيها الأحمق، دعني أحتفل بالنصر دون إزعاج.

- يا سيدي لقد فك أبو حمزة وثاق الأسيرين وساقهما إلى خارج القصر.

جن جنون الوليد وألقى الكأس من يديه وقال:

- وكيف سمحتم له بذلك؟

- حاولنا منعه يا سيدي لكنه أخبرنا أنها أوامرك أن يسوقهما للسجن.

لطمه على وجهه وقال:

- أحمق، ائتني بهما وإلا سوف تنال قسطهما من الويل والعذاب.

ثم قال متمتمًا:

- لقد صبرت عليك يا أبا حمزة ولم أنتبه إلى أنك قد صرت شوكة في ظهري، الثأر أصبح بيني وبينك أيها الخائن اللعين.

كان أبو حمزة قد مضى بهما حتى إذا اطمأن أنه بعيد عن مواضع الحراسة انعطف في اتجاه النهر ونادى على أحد الصيادين ليعبر بهم للجهة الأخرى، فكان هو الصياد الذي باتا عنده من قبل، وكان صديقًا للأمير أبي حمزة محبًا له فعرف القصة ووعد ألا يشي بهم، فأركبهم زورقه الصغير ليعبر بهم للجهة الأخرى فاستلقى ابن الكاتب وصاحبه فيه على بطونهما فأخذ يسكب الماء فوق ظهورهما ليطفئ نار سياط الظالمين، وقال:

- كنت أشعر منذ رأيتكما أول مرة أنكما تحملان سرًا ما، لا تخافا فأنا لا أقل عنكما كرهًا لابن يحيى وولده وحاشيتهما، فقد أعدموا ولدي أمام عيني ولم تكن له جريرة(١) سوى أنه رفض أن يبيعهم الغلال بالسعر الذي فرضوه،

فكان يشتري الحبوب من قرطبة ويبيعها للناس نظير مكسب زهيد، فلما علموا بذلك هددوه مرارًا فلم يهتم لأمرهم فاتهموه أنه يسرق الحبوب من بيت المال ويبيعها للناس وجاءوا بشهداء الزور الذين شهدوا على ذلك، ثم حكموا عليه بالإعدام وأيد العوام حكمهم في من يسرق صدقاتهم فمات مظلومًا لم يجره أحد ولم أقو على إنصافه.

قال أبو حمزة متأثرًا:

- أجل لقد شاهدت ذلك بأم عيني وأشعر بالذنب على السكوت عن الحق، لكن قد طفح الكيل وبلغ الظلم مبلغًا عظيمًا وقد عزمت على مقاومة الظلم والظالمين.

قال ابن الكاتب بصوت ممزوج بالأنين:

- وأنا أضمن لك جيشًا من الشرق سأقود جحافله بنفسي.

قال أبو حمزة:

- وأنا أضمن لك سائر بلاد المملكة ممن يعانون الظلم ويترقبون الخلاص.

- وفقكم الله وسدد خطاكم، وأنا سأساعدكم بكل ما أقدر عليه، ولن أتوانى أبدًا عن نصرتكم، فأنا هنا كالأسير أعمل لحساب أحد وجهاء المدينة من أصحاب وليد ووجهاء المدينة ويراقبني الجنود ويأخذون صيدي أولًا بأول نظير القليل من المال، فلا أستطيع الهروب ولا حتى التذمر، اسمع يا أبا حمزة إن هناك قرية على مشارف السهلة تدعى قرطم فيها أهلي وأخداني، اذهب إليهم فسوف ينصرونك وينضمون لجيشك، فهم على علم بما أصاب ولدي ويعقدون العزم على القصاص.

عبروا للجهة الأخرى ودخلوا البلدة التي ولد فيها أبو حمزة فنزلوا عند بيته فأخذ زوجته وطاف على ديار أبنائه – وكانوا رجالًا – وأمرهم أن يصحبوه لأن عسكر الوليد سيأتون إليهم عما قريب، ثم سار بأهله ودخل إحدى القرى الصغيرة ونزل عند أحد أصحابه المقربين وبات فيها مع أهله وصاحبيه، ثم انضم إليه بعض رجاله المقربين وساروا ناحية السهلة حتى بلغوا قرطم، فانضم إليهم جند كثيرون فقصدوا السهلة يريدون دخولها وهناك اشتبكوا مع الجنود

(١) جريرة: ذنب.

المحاصرين لها ونجحوا في
هزيمتهم وقتلوا عددًا منهم وفر الباقون.
كان الوليد وجنوده يبحثون في كل شبر عن أبي حمزة وصاحبيه، دخلوا البلاد كلها وفتشوا في البيوت وبلغوا مسقط رأس أبي حمزة واقتحموا بيته فلم يجدوه وظلوا يجوبون البلاد بحثًا عنهم حتى جاءهم الجنود الفارين من السهلة، فأخبروهم بما كان من سرية أبي حمزة التي أجهزت عليهم، جن جنون الوليد وأمر جنوده بالاستعداد لدك السهلة، لكن مهاجمة بعض سرايا السرقسطيين للحدود جعله يؤجل الأمر، فقد أشار عليه رجاله قائلين:
- يا سيدي قد جاءت إلينا رسالة ألفونسو السادس ملك الفرنج في قشتالة، يأمرنا بالتقدم للإجهاز على جيش التجيبي، وأي تأخير قد يجعل الفرنج ينقلبون علينا وإن الصيد في السهلة قد دخل القفص فليظل في قفصه لحين ننتهي من شرذمة(١) جيش التجيبي.
فاطمأن للرأي وانشغل في حرب السرقسطيين وتقدم عليهم تقدمًا ملحوظًا.
لما دخلوا السهلة جعلوا شغلهم الشاغل هو إعادة بناء الجيش، أخذ ابن الكاتب يخطب في الناس ويحثهم على الجهاد والانضمام لجيش أبي حمزة وحذرهم من البلاء الذي سيحل بالمدينة إذا دخلها الوليد وجيشه فكانت كلماته بمثابة النار تحت الرماد، فقد أشعلت الحماسة في قلوب مستكينة، ثم تنقل بين البلدان المجاورة حتى انضم إليه عدد كبير ثم انضم إليه بعض الهاربين من بطش الوليد، فزاد عدد الجيش وأنفق ابن الكاتب من إرث الملك الكثير من المال على تجهيز الجيش وتسليحه وكان الجيش في حماس شديد للثأر من الوليد والخلاص من شره، لكن ابن الكاتب آثر أن ينتظر لحين تصله أي أخبار من هناك، كان كل همه ألا تصاب حبيبته بسوء، كان يريد أن يطمئن عليها، ويطمئنها عليهم، فقرر أن يكتب لها رسالة، لكن عارضه زمزم وأبو حمزة وقالا:
- هذا جنون وانتحار، ومجازفة لا نأمن عواقبها.
قال زمزم:
- وقد رأيت ما جرى لنا حين جازفنا في المرة الأولى.

(١) شرذمة: جماعة قليلة.

قال ابن الكاتب مداعبًا زمزم:
- لا بد وأن نستطلع أخبار عدونا، وإني أراك أهلًا لذاك يا زمزم، فما رأيك أن تذهب لتستطلع أخبارهم ثم تأتي لتخبرنا بموعد الهجوم؟
قال زمزم متلجلجًا:
- ل، ل، لا، ابحث عن غيري أو اذهب أنت فما زالت آثار سياطهم في ظهري لم تلتئم.
- إنه الحل الوحيد لكي نطمئن على ذوينا قبل الغزو وننتظر منهم ردًا نهتدي به.
- ولكن كيف ستصلها الرسالة؟
- سترى يا زمزم.
طلب ابن الكاتب أن يؤتى له بأحد صانعي الفخار، فجاء إليه فسأله:
- أين تبيع بضاعتك؟
- أتجول بها في الأسواق أبيعها للتجار.
- هل ذهبت إلى تيروال من قبل.
- أجل يا سيدي فأنا أذهب إليها منذ ثلاثين عامًا، لكن ما عدت أذهب إليها منذ خرجت عن حكم الملك.
سأله ابن الكاتب عن التاجر الذي رأى عنده أم زمزم ووصف له مكان دكانه، فأخبره أنه يعرفه جيدًا، فهو يتعامل معه منذ زمن.
- حسنًا سأطلب منك أن تصنع لي إناءً فاخرًا جميل الشكل دقيق الصنع ضيق الفوهة عظيم القاع عميق الجوف كي أبعثه لأحد المقربين هناك.
- حسنًا يا سيدي في الغد سيكون لك ما طلبت.
في اليوم التالي جاء الرجل ومعه طلب ابن الكاتب، فأعجب ابن الكاتب بما أنجز الفخاري ثم أخذ الإناء ودخل إلى غرفة الكتب فدس الرسالة في جوف الإناء فلم تكد تبدو للناظرين من الفوهة الضيقة ثم خرج إليه وقال:
- اسمعني جيدًا، ستذهب إلى تيروال يوم السوق ومعك بضاعتك التي تصنعها وتبيعها للتجار، ثم تقصد تاجر الفخار صديقك الذي وصفت لك مكانه فتعطيه هذا الإناء وتخبره أنه هدية لها من أحد الأشخاص بدلًا من إناء اللبن الذي كسر

مع إناء الماء، وبعد أن تسلمه الإناء انتظر في المدينة ثلاث لياليَ فإذا جاءك رد من أم زمزم الجارية تعال به في الحال، وحذار أن يكشف أمرك جنود الوليد أو يعرف أحد أني من أرسلتك.

طمأنه الفخاري وانطلق لينجز مهمته.

بلغ الإناء إلى أم زمزم ففهمت من الماء واللبن أن الإناء قادم من ابنها أو صاحبه، فكتمت الأمر وأسرعت للأميرة وأخبرتها فأدخلت يدها في جوف الإناء فوجدت الرسالة فقرأتها:

"السلام على من أرواحنا بهم عالقة وقلوبنا لهم خافقة، مهجة قلبي وسؤدد فؤادي ونور عيني، قد فاض شوقي إليك من بين الجوانح حتى رأيته يغمر أرواحًا ويروي قلوبًا جفت من النوى، فهواك يبعث الحياة في القلوب وهجرك يزهق أرواح العاشقين، الأزمنة في بعدك ليل بلا نهار والأمكنة في غربتك سجن بل أسوار، وسوط الوليد في وجودك أهون على نفسي من ملك الأرض في بعدك، ما زلت أمني نفسي باللقاء وأود لو ابتعت أقدام السليت(١) فطويت البوادي إليك لأنقذك من أيدي الخبثاء، إننا بخير ما دمتم بخير، نجونا بفضل الله وبمساعدة أبي حمزة وقد عدنا إلى السهلة، وأعددنا جيشًا سيأتي إليك في القريب، لكنا ما زلنا نتقصى أخبارهم ونراقب جهدهم لنتحين فرصة نباغتهم فيها، أحسنوا الظن بالله فكما أنقذنا من بطش الظالمين قادر أن ينجيكم ويكف أيدهم عنكم، فاستعينوا بالله واصبروا وإنا على موعد قريب نرجو أن تشيروا علينا فيه، إن استطعتم الرد فبالطريقة التي بها وصلتكم الرسالة أرسلوها، وإن لم تستطيعوا فلا جناح عليكم، وختامًا سلامنا إليكم".

فتهلل وجهها وتجددت آمالها وأحست كأن الدماء تتدفق مرة أخرى في شرايينها .

وفي المساء جلست تقرأ الرسالة مرة ومرة، ثم أخذت تفكر وتفكر وبدأت تكتب ردها.

لما أشرق الصبح استدعت الأميرة أم زمزم ووضعت رسالتها في الإناء مرة أخرى وأمرتها أن تخرج لبائع الفخار وتخبره أن هذا ليس كالإناء الذي كسر، وأن يرده

(١) ابتعت أقدام السليت: مثل كانت تضربه العرب في السرعة والسليت هو رجل مشهور بسرعة جريه.

لصاحبه مرة أخرى وأمرتها أن تعطيه مالًا حتى لا يبيعه لأحد سواه.
كانت سليمى تراقبهم كالعادة، فقالت أم زمزم:
- سيدتي، إن سليمى تراقبنا.
أجابت رقية غير مكترثة:
- لا عليك يا أم زمزم فقط افعلي ما أمرتك به.
كانت سليمى قد رأت الأمر فأسرعت للوليد وأخبرته فشك في أمر الإناء، وفي أثناء نزول أم زمزم بالإناء قابلها الوليد قائلًا:
- إلي اين يا أم زمزم؟
- إلى السوق يا سيدي، فسيدتي صفية على علم بنزولي للسوق.
- ما هذا الإناء؟
- اشتريته بالأمس للأميرة فلم يعجبها وأمرتني أن أرده للبائع.
- ما مثل هذا يرد، سأشتريه أنا.
ثم أخذه منها ومد يده فيه فأخرج الرسالة، وقال:
- لقد كثرت أخطاؤك يا جارية ولولا حظوتك عند الملكة أمي لقتلك، ثم نادى الحراس ليسوقوها إلى السجن، ثم أخذ الرسالة وقرأها على أبيه وأمه.
قال أبوه:
- أحسنت، فلم تطمئن نفسي يومًا إلى أم زمزم هذه.
قالت صفية بنبرة هادئة :
- لا بد وأن تخرج أم زمزم من السجن.
قال الوليد مستنكرًا:
- عطفك هذا يا أمي هو ما يجرئ علينا العبيد والجواري.
- ليس عطفا ولكنها حيلة.
- وكيف ذلك؟
- في الرسالة تطلب منه رقية القدوم إليها وتحدد موعد قدومه، فهل هناك صيد أسهل من هذا.
- فهمتك يا أماه، تريدين أن تصل الرسالة إليه فيستجيب ويأتي إلى الشرك

بقدميه فنصطاده كالجرذان.
- أجل، وإذا انتهى هذا اللعين انتهت معه السهلة وتفرغنا من إزعاجها.
خرج الوليد وأمر بإطلاق سراح أم زمزم، وأن يؤتى بها إلى الملكة فاعتذرت لها صفية وأظهرت رقة القلب والعطف فتعجبت أم زمزم لذلك ثم أعطتها الإناء وفي جوفه الرسالة وقالت:
- اعذري الوليد يا أم زمزم فهو سريع الغضب وقد وبخته على فعلته، اذهبي إلى السوق وردي الإناء واشتري للأميرة ما تريد.
وأرسلت خلفها سليمى لتطمئن لوصول الإناء للبائع ومنه إلى رسول ابن الكاتب
عادت أم زمزم إلى رقية بعد أن أنجزت ما أُمرت به، كان الذهول يكاد يذهب عقلها فهي لا تفهم سر تغيرهم معها هكذا، ثم اعتذرت لرقية عما كان من كشف أمر الرسالة فابتسمت رقية وقالت:
- لا تعتذري يا أم زمزم فهذا ما أردت، وقد تعمدت أن ترى سليمى الأمر وتخبر الوليد وها قد ابتلع الطُعم.
عادت سليمى إلى صفية وأخبرتها أن الإناء قد عاد للرجل فأعتطتها بعضًا من المال، وطلبت منها ألا تغفل عينها عن الأميرة.
في الليل كان الوليد جالسًا مع بعض ندمائه يلهون كعادتهم قال الوليد:
- أرأيتم النصر الذي حققناه على جيش التجيبي؟
- لم يبق إلا اليسير يا سيدي وتصير سرقسطة في قبضتنا.
- أجل وبعدها نتفرغ للبليدات الصغيرة ندكها كما دك سليمان وجنوده وادي النمل.
قال أحدهم هاذيًا:
- لكنهم لم يدكوها يا سيدي.
عنفه الوليد وقال:
- الوليد إذا قال أمضى أيها الوغد، سوف أدكها.
احتسى رشفة من الخمر ونظر إلى القدح(١) في يديه وقال:
- ما أشهاك يا ابنة الكرم(٢).

ثم فنظر للهلال في السماء وقال لندمائه:
- انظروا للهلال في السماء كم هو جميل، إنه يكون أجمل حين يصير بدرًا.
قهقه المخمورون وقالوا:
- أجل يا سيدي.
- كم يتبقى على اكتمال البدر يا رجال؟
- عشرة أيام يا سيدي.
- بعد عشرة أيام من الآن سنصطاد صيدًا ثمينًا.
هلل المخمورون وأكملوا لهوهم ورقصهم.
كانت سليمى تخرج من مجلس اللهو حاملة أقداح الخمر حين قابلتها فجر في الطُرقة فقالت لها متلفهة:
- أين كنت يا سليمى؟ لقد سألتني عليك الأميرة.
- وماذا كانت تريد؟
- لا أدري ولكنها غضبت حين علمت أن الوليد يطلبك في مجالس اللهو دون إذن منها.
- وما شأني أنا، أنا هنا أنفذ أوامر سيد القصر.
- يا سليمى أنت جارية لدى الأميرة رقية وليس الأمير الوليد.
ضحكت سليمى وقالت ساخرة:
- بل أنت جارية رقية، أما أنا عما قريب سأكون سيدة هذا القصر.
- أفيقي من تلك الأحلام يا سليمى ولا تبيعي الأميرة التي قضينا معها جُل عمرنا ولم نر منها سوءًا لتشتري وهم الأمير.
- أراك تغارين مني بسبب حب الأمير لي وقربي منه، أعدك أن أشفع لك عنده فيدنيك من مجالسه.
- لا تخادعي نفسك يا سليمى فالأمير لا يحبك، هو فقط يستغلك لخدمته باسم الحب، يجعلك عينًا له على نساء القصر وما يدنيك منه حقًا هو وشايتك بالأميرة، كما أنه يستخدمك في مجالس اللهو، وما خفي كان أعظم.

(١) القدح: الكأس.

(٢) ابنة الكرم: كناية عن الخمر والكرم هو العنب.

قالت سليمى بنبرة حادة:
- اسمعيني جيدًا يا امرأة، بما أنك قد قذفتيني بالباطل واتهمتيني بالوشاية فاحفظي أدبك معي وخافي على نفسك من الوشاية بك عند الأمير، وأعدك أنت وسيدتك أن أجعلكما من وصيفاتي حين أصبح سيدة هذا القصر.
انصرفت سليمى وتركت فجر في حيرة وغضب مما قالت،
بلغت الرسالة ابن الكاتب فبدأ يقرأ ما فيها.
"بسم الله
إلى من يحن إليه قلبي وتتوق إليه نفسي،
بفضل الله وبرحمته إننا في أحسن حال فاطمئنوا،
أني ما زلت أحفظ لك العهد،
لا أقطع الأمل في اللقاء،
سأنتظرك مهما طالت الأيام واشتدت الكرب،
قريبًا سنلتقي فما أجمل اللقاء بعد شوق،
انتظرك بلهفة تغمر قلبي،
يا من علمتني الحب والوفاء،
هذه رسالتي إليك أكتبها بدمي ودمعي،
فاقرأها بشوق المحب مرات ومرات وعِ ما فيها،
جُل المحبين قد احتاروا في الحب وعلموا أنه لغز كبير،
ربما لا ندرك حكمة الأشياء من المرة الأولى،
إذا انقطعت السبل وتعقدت الأمور فاعلم أن لذلك حكمة،
لا تدع لليأس إلى قلبك طريق،
جاهد نفسك واكتب إلي ولا تقطع رسائلك،
ما من حرف في رسالة إلا ويحمل ألف معنى،
على رؤوس السطور يكون الحل وبالمراسلة تنطفئ لهفة الأشواق،
تعال إلي عند اكتمال البدر سأنتظرك بلهفة وشوق".
انتهى من الرسالة فقال زمزم:

- إنها حددت لنا موعد الهجوم، سيكون بعد عدة أيام ليلة اكتمال البدر.
قال أبو حمزة:
- حسنًا يا رفاق علينا أن نستعد فالموعد قد جاء أسرع مما نتخيل.
لاحظا شرود ابن الكاتب فقال زمزم:
- فيم تفكر يا محمد؟
- لا أدري يا زمزم، أشعر بشيء ما في الرسالة، فليس هذا أسلوب رقية الذي اعتدت عليه، الأسطر منفصلة والجمل غير متناسقة.
- ماذا تعني؟
- أشعر وكأنها مدسوسة، وأنه فخ من الوليد لنا.
قال أبو حمزة:
- لقد أكد لنا الفخاري أن أم زمزم هي من سلمتها إليه بيدها، ولم تبلغه أن فيها شيء.
قال زمزم مستنكرًا:
- أنت دائمًا هكذا متشائم يا ابن الكاتب، فما من شيء في الرسالة يا صاحبي، الأميرة تقول لك تعال عند اكتمال البدر، فلم تلك الحذلقة(١).
- ليست حذلقة ولكني أشعر بشيء ما في الرسالة.
قال زمزم متهكمًا:
- وبم تشعر يا صاحب القلب الأحذ(٢).
- لا أدري يا زمزم فأنا في حيرة، ليت شعري ما سر تلك الرسالة.
لم ينم ابن الكاتب ليلته وظل يقرأ الرسالة ويعيدها مرة ومرة حتى نهض كمن لدغه عقرب وأسرع يجري نحو زمزم وهو يقول:
- وجدتها يا زمزم، عرفت سر الرسالة استيقظ بسرعة.
استيقظ زمزم على مضد وقال:
- أمجنون أنت يا ابن الكاتب؟ ماذا دهاك يا صاحبي؟
- لقد وجدتها يا زمزم وعرفت موعد الهجوم، فالرسالة ليست مدسوسة.

---

١) حذلقة: التكلف في الرأي وادعاء ما ليس عندك من العلم.
(٢) قلب أحذ: سريع الإدراك.

- إن كانت ليست مدسوسة فيكون موعد الهجوم عند اكتمال البدر كما جاء فيها.
- لا ليس هذا هو الموعد.
- أقسم أني لا أفهم شيئًا، سوف تُذهب عقلي بحذلقتك يا ابن الكاتب.
- تعال معي إلى أبي حمزة وسوف أفسر لكما الأمر.
كان الوليد في تلك الليلة يطوف على جنوده ليلًا فمن رآه متخاذلًا أو متقاعسًا عاقبه أشد العقاب، فكان الجنود كالصقور يقظة عيونهم، وكان يخبرهم أن هناك عدو سيتسلل إليهم عند انتصاف الشهر فمن قتله وقدم رأسه للملك فله مكافأة عظيمة، فكان الجنود ينافس بعضهم بعضًا من أجل نيل الجائزة من الملك والقائد، ثم تجول الوليد ومعه قائده عباد عائدين إلى القصر، وكان قد أظهر له الحزم والجد فقال:
- لقد سبق وتسببت في هروب ابن الكاتب وأبي حمزة، وقد أجلت عقابك لحين تثبت لي أنك لا تستحق مني ذلك، سأعطيك مهلة شهرًا تأتيني بابن الكاتب وأبي حمزة أو رأسيهما.
- أعدك يا سيدي بذلك قبل تمام الشهر.
- سنرى يا عباد، اذهب الآن وباشر عملك مع جنودك.
مضى من مدخل القصر وسار في الساحة وتجول في البستان متجهًا نحو الباب، فلما نظر لأعلى رأى شرفة الأميرة وينبعث منها الضوء، فصعد إليها وطرق الباب ففتحت الجارية فجر، فأخبرها أنه يريد الأميرة، فأمرتها الأميرة أن تخبره أنها نائمة، فلما أخبرته بذلك دخل وقال:
- لماذا ترفضين مقابلة الوزير أيتها الأميرة الحسناء؟
نظرت إليه غاضبة ولم ترد.
- لماذا لا تردين؟
- ليس بيني وبينك كلام، ثم بأي حق تقتحم غرفتي هكذا؟
- ما أنا عنك غريب، فأنا خطيبك وابن عمتك وما هي إلا أيام وتصيري زوجتي بعدما شفاك الله من سقمك ومضت أيام الحزن والحداد.

- لن يحدث ذلك ولو كان فيه قضائي(١)، أتظن أني سأتزوج من قاتل أبي؟!
مد يده وأمسك ذراعها بشدة وأحكم قبضته عليها وقال:
- إن سمعتك تهذين بمثل هذا الكلام مرة أخرى فسوف يكون في الأمر قضاؤك حقًا، فأنا لم أقتل أباك ومن قتلوه قد اعترفوا بفعلتهم ونالوا جزاءهم، ومن كان يملك بينة ضدي فليأت بها.
قالت وهي تتألم من شدة قبضته:
- مخطئ إن ظننت أن ظلمك سيدوم، إن كان يغرك كثرة جنودك وزهو سلطانك فاعلم أن للباطل جولة ثم يضمحل(٢).
نظر إليها بغضب وأطلق ذراعها من يده ثم تركها وانصرف مندفعًا.
ذهبا إلى أبي حمزة وكان جالسًا مع بعض جنوده يتسامرون حول النار، فلما رآهما رحب بهما ودعاهما لشراب دافئ، فاعتذرا له وأخبراه أنهما يحتاجانه في أمر ما، فقام معهما فدخلا إلى مجلس الحكم.
قال أبو حمزة:
- ما الأمر يا رجال؟
رد زمزم:
- صاحبك يا أمير قد أيقظني من نومي وأفسد عليك مجلسك مدعيًا أن في الرسالة سر قد غاب عنا وعرفه ذلك الفصيح.
قال أبو حمزة متلهفًا:
- ما الأمر يا محمد؟ هل من جديد؟
فتح ابن الكاتب الرسالة، وقال:
- اسمعاني جيدًا حتى أنهي كلامي، لقد كتبت رقية الرسالة بذكاء شديد وجعلت الجمل منفصلة وكل منها في سطر منفرد، وحوت رسالتها معنى باطنًا غير المعنى الظاهر فيها، والدليل على ذلك قولها: "اقرأها مرات ومرات وعِ ما فيها"، ثم أكدت ذلك بقولها: "اعلم أنه لغز كبير"، أعادت التأكيد حين قالت: "لا ندرك حكمة الأشياء من المرة الأولى"، ثم قالت: "إذا تعقدت الأمور"، أي لم تفهم

(١) قضائي: موتي.
(٢) يضمحل: يختفي، وللباطل جولة ثم يضمحل أي مهما طال الباطل لا بد أن ينهزم يومًا.

الرسالة: "فاعلم أن لذلك حكمة"، ثم كان اللغز الأكبر في رسالتها حين قالت: "على رؤوس السطور يكون الحل"، وهي بذلك تعني أن موعد الهجوم موجود في أول كل سطر، ربما أول حرف أو أول كلمة، لكني عندما جمعت أول حرف من كل سطر وجدت: " ب ا ب ا ل س ق ا ي ه ف ج ر ا ل ج م ع ه"، حين نصنع منها جملة تصير: "باب الساقية فجر الجمعة".

أطبق ابن الكاتب الرسالة وقال متمتمًا:

- كم أنت ذكية يا رقية! كم أنت بارعة يا حبيبتي!

ذُهل أبو حمزة وزمزم من ذكاء ابن الكاتب ثم قال أبو حمزة:

- لعلها اختارت ليلة الجمعة؛ لأن الوليد في تلك الليلة يجتمع بندمائه وجواريه يلهون ويشربون الخمر، حتى إذا قارب الفجر ناموا، فتكون فرصة لنا أن ننتهز نومهم على تلك الحالة.

- ألم أقل إنها بارعة يا أبا حمزة؟

- هي كذلك يا ابن الكاتب، لكن لم يتبق سوى يومين على الجمعة لا بد أن نستعد من الآن.

- أجل لكن ما باب السقاية هذا؟

- إنه باب خلفي صغير يطل على النهر ويؤدي إلى بناية العبيد يستخدمه العبيد في ملء الماء من النهر وسقي الزرع.

قال زمزم:

- أجل لقد كان هنا في القصر باب مثله، ثم أغلقه الملك وبنى محله مجلسًا على النهر وكرمة للعنب.

عقب أبو حمزة:

- حين بنى الحافظ قصره أمر بأن يبنى على طراز قصر الملك هنا فالبنايتان متشابهتان إلى حد كبير.

- وهذا ييسر علينا خطة الدخول.

- إذن فلنستعد للهجوم.

- هل سيسعفنا الوقت من أجل تجهيز الجيوش.

- جنودي جاهزون وينتظرون أمر الهجوم.
بدأ التدريب والاستعداد من الصباح، كان عدد الجيش يتزايد ودبت الحماسة في النفوس، وأظهر ابن الكاتب في التدريب براعة في القتال، فأبدى أبو حمزة إعجابه قائلًا:
- ما كل تلك البراعة يا ابن الكاتب؟! فأنت مقاتل ماهر رغم علمي أنك لست برجل حرب.
- لقد نشأت في قرطبة وتعلمت هناك فنون الحرب والقتال.
وكان زمزم يجيد الرماية فجعله أبو حمزة على رأس فرقة الرماة.
لما انتهى التدريب أمر ابن الكاتب بجمع الناس ومعهم الجنود ثم وقف خاطبًا:
"الحمد لله الذي يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، يا أهل شنتمرية جميعًا من شرقها وغربها، من كل حاضرة وبادية، من أهل المدينة أو ممن فروا من الظلم والطغيان إليها، لما وطأ أجدادنا الأندلس مضوا يفتحون أرضًا تلو أخرى تحت راية الله ومن أجل دين الله، لم يسعوا يومًا إلى ملك ولا جاه، فأعزهم الله ومكن لهم في الأرض وآتاهم المُلك، فقويت شوكتهم وعظمت دولتهم وانتشر دين الله وأقيم عدله، مرت السنين فتغيرت النفوس، وظهر أناس بيننا غرتهم الحياة الدنيا فأحبوا متاعها وسعوا إلى ملكها واتخذوا دين الله وراءهم ظهريًا وفرحوا بما أوتوا حتى نسوا الله فنسيهم، وعاقبهم الله بأن زرع في قلوبهم حب الدنيا وكراهية الموت، فصاروا يتناحرون ويقتل بعضهم بعضًا من أجل عرض زائل، وقد شاء الله تعالى أن تروا ذلك بأعينكم، فقد رأيتم أناسًا من جلدتكم يأكلون مما تأكلون منه ويشربون مما تشربون، وليتموهم أمركم وأمنتوهم على أنفسكم فأضاعوا الأمانة وخانوا العهد، وأمعنوا في الغي وتمادوا في اللي(١)، واستحلوا الدماء وقسموا الأرض، فصارت أرضنا غريبة علينا لا تطؤها أقدامنا إلا بإذن من لا يملك ذراعًا فيها، وليتهم أقاموا العدل بين الناس بل ظلموا وتجبروا وفرضوا الجبايات، وازدادوا هم غنى وعزًا وازداد أهلنا فقرًا وذلًا، وإني قد سمعت قرقرة(١) بطونهم الخاوية تطغى على أصوات أنين صغارهم، ورأيت في أعينهم المهابة والمهانة وشممت رائحة الدماء على أعتاب

(١) اللي: الباطل وتزييف الحقائق

بيوتهم، فاستغاثوا بنا واستنصرونا، وإنه لعار علينا أن نخذل من يستنصرنا، فإما أن نغضي على القذى(٢) ونركن إلى أنفسنا فيصيبنا ما أصابهم ونصير عبيدًا للوليد وجنودًا في جيشه يسوقنا لحرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل، أو أن نعقد عزمنا ونشد أسرنا وندرب جيشنا وننتصر لأنفسنا وذوينا، ولا نرغم على ذلك أحدًا فالأمر إليكم فاختاروا.

هتفوا جميعًا:

- الحرب، الحرب، الحرب، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.

هتف الناس فاهتزت الجبال وزلزلت الأرض.

- حسنًا قد خيرتكم فيما عند أنفسكم وما عند الله، فاخترتم ما عند الله فامضوا معنا على بركة الله، ولا تبخلوا على الله بأنفسكم، فالموت لا يهابه إلا جبان أو منافق، واعلموا أنهم يطلبون الحياة وتطلبون الموت، ويريدون الأرض والجاه وتريدون العزة والشرف، ويقاتلون تحت راية الشيطان وتقاتلون تحت راية الله، يقودهم خائن قاتل ويقودكم أناس من طينتكم، ينتصرون لغيرهم وتنتصرون لأنفسكم وأهليكم فأقبلوا عليهم بقلوب أقسى من الحجارة وعزائم أقوى من الريح، وسيوف أحمى من الجمر، ولتكن خيولكم سوابق وسهامكم خوارق ولا تولوا عنهم مدبرين، قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين.

أشعلت كلمات ابن الكاتب الحماسة في النفوس فأخذوا يهتفون ويهللون بعدما اشتدت العزائم واشتاق الناس إلى النصر وزادت أعداد الجيش.

مضى ابن الكاتب مع أبي حمزة ينظمون الجيش ويوزعون المهام ويعينون القادة ثم جلسوا مع القادة يضعون خطتهم.

قال أبو حمزة:

- القصر عليه حراسة مهيبة وأمامه قلعة حصينة وهناك جبل يشرف على القلعة، أقوى ثلاث نقاط هي سطح القصر، وقمة الجبل، وأبراج القلعة، لو سيطرنا عليها سنحقق النصر بسهولة، فمن كان له رأي فليشر به علينا.

---

(١) القرقرة: صوت البطن.

(٢)يغضون على القذى: أي يغلقون عيونهم على الغمص والمراد يسكتون على الظلم.

قال ابن الكاتب:
- أرى أن تكون الخطة كالتالي، ندخل من باب الساقية إلى داخل القصر، فيبدو أن تلك النقطة هي أضعف نقاط الحراسة.
قال أحد القادة:
- وكيف سندخل تيروال الحصينة حتى نبلغ باب السقاية؟
قال أبو حمزة:
- من خلال درايتي بأمور الحراسة والجند، فإن أضعف نقاط الحراسة تلك التي تحيط بالنهر، فإذا نجح جماعة منا في اختراق تلك النقطة وبلوغ النهر سيكون سهلًا عليها الوصول للقصر بمساعدة صديقي الصياد الذي أنقذنا من قبل.
- وكيف سندخل من باب السقاية يا أمير؟
- على ضفة النهر المقابلة للقصر يقف بعض من الجنود، يركزون جهودهم وأبصارهم في جهة النهر الأخرى ولا يتوقعون هجومًا من داخل النهر، فإذا تسللنا وهاجمناهم من جهة النهر فسيكون سهلًا علينا اقتحام باب السقاية وذلك عليه حارس واحد إذا عبرنا الباب أصبحنا داخل القصر.
قال ابن الكاتب:
- أجل ثم نصعد السطح ونسيطر عليه ونضع فوقه رماتنا، وبذلك نسيطر على أول نقطة قوة لديهم.
قال أبو حمزة:
- ثم نزرع فرقة الرماة الثانية في بيوت ذوينا ممن نثق فيهم، يدخلون البلدة مساء الغد على أنهم تجار للحطب والخشب وذلك مسموح لهم بالدخول لعدم وجود تلك البضائع داخل المدينة، فيخفون أقواس رمايتهم وسط الحطب ويبيتون في البلدة منتظرين صبيحة السوق يوم الجمعة، نحدد لكل واحد منهم بيتًا يذهب إليه ويبيت فيه.
أكمل ابن الكاتب:
- حتى إذا جاءت الإشارة ودارت حرب بيننا ورماتهم فوق القصر انتبه رماة الجبل وأداروا ظهرهم للقصر لينقذوه فيخرج عليهم جنودنا من مخابئهم في

البيوت، فيينقضوا عليهم فوق الجبل ويجهزوا عليهم، وبذلك لا يتبقى سوى القلعة والتي ستكون بين رماتنا فوق الجبل ورماتنا فوق القصر، وهنا يأتي دور أبي حمزة والذي يهجم بفرسانه وبقوة جيشه على القلعة وينصب المجانيق على الجبل ويضربها حتى يتحقق النصر بإذن الله.

أبدى الجميع اقتناعه بالخطة ومضوا كل إلى عمله.

قسم ابن الكاتب الرماة إلى فرقتين وجعل زمزم على رأس الأولى والتي ستدخل القصر معه، وجعل أخرى يقودها أحد أبناء أبي حمزة والذي يعرف الناس في المدينة ويدرك البيوت جيدًا، وتلك ستختبئ في البيوت وتهاجم الجبل، ثم أمر الفرقة الثانية أن تتحرك وتسبقهم وأن يدخلوا المدينة في هيئة التجار ويبيتون منتظرين الإشارة.

في تلك الليلة كان الوليد جالسًا مع أصحابه السكارى يشربون الجعة(١)، ويداعبون الجواري، جاءت سليمى حاملة أقداح الخمر تقدمها إليهم فأمسك الوليد يدها وأخذ يقبلها وقال مداعبًا:

- ما أشهى الجامات(٢) والقرىّ(٣) من تلك الأيدي الجميلة.

فضحكت في دلال فهمس في أذنها:

- الليلة لقاؤنا يا امرأة.

تناول أحدهم كأسه وصاح:

- نشرب هذا النخب(٤) على شرف ملك تيروال.

كان الوليد جالسًا فوقف يترنح وقد أذهب الخمر عقله وقال غاضبًا:

- ويحك يا غبي، بل ملك شنتمرية من أولها إلى آخرها.

رد أحد أصحابه مقاطعًا:

- أجل يا ملك البلاد ولكن ما زالت السهلة خارج أيدينا.

- أيام ويقع جرذ السهلة في شراكي، وحينها سأعلقه على أبوابها وأدخلها بغير

---

(١) الجعة: نبيذ الشعير والقمح.

(٢) الجامات: كؤوس الخمر من الفضة ونحوها ومفردها جام.

(٣) القرى: ما يقدم للضيف.

(٤) النخب: الخمر.

(٥) مخدعه: منامه.

قتال،ثم أتفرغ للغرب والشمال فأغزو الأندلس شبرًا شبرًا، فلسوف ترون ابن زياد يبعث من جديد.
وأطلق قهقهة عالية وضحك أصحابه وباركوا للإمبراطور الجديد، وظلوا على تلك الحال حتى اقترب الفجر، فانصرف كل إلى مخدعه(٥) وانصرف الوليد إلى جاريته
تحرك الجيش يقوده ابن الكاتب وأبو حمزة حتى بلغوا مسقط رأس أبي حمزة، وهناك عسكر أبو حمزة بفرسانه منتظرًا الإشارة وانعطفت فرقة الرماة الأخرى ومعهم ابن الكاتب وزمزم إلى النهر، ثم مضوا يسيرون مع النهر حتى بلغوا أطراف تيروال فوجدوا جنود الوليد يجولون حول النهر فأطلقوا سهامهم وقتلوهم جميعًا ونزلوا إلى النهر وهناك وجدوا الصياد الذي حملهم من قبل، فحملهم إلى داخل البلدة ودخل بهم إلى قرب القصر وأمرهم أن يسرعوا في إنجاز مهمتهم فبعد وقت يسير سيُكتشف أمر الجنود المقتولين عند النهر، فطمأنوه وانصرفوا، وهناك اختبأوا في جسر النهر منتظرين فرصة ينقضون فيها، أُذن للفجر فحانت الساعة.
تفاجأ حارس باب السقاية بالجارية فجر تطرق عليه الباب من الداخل قائلة:
- افتح أيها الحارس.
أجابها من الخارج:
- إلى أين تذهبين في تلك الساعة يا جارية؟
- أذهب كى أملأ الجرة من النهر، فسيدتي تريد الوضوء ولا يوجد ماء.
- ألا تعلمين أن الخروج ممنوع في تلك الساعة.
- أنا أنفذ أمر سيدتي، أرجوك افتح لي الباب.
- ليس لدي أمر بذلك.
- لو علمت سيدتي صفية أنك منعتني الماء ستعاقبك أيها الحارس.
لما سمع اسم السيدة صفية اضطرب وأخرج مفتاحًا كبيرا وفتح لها قائلًا:
- أسرعي وإلا عاقبني أمير الجند.
انتبه ابن الكاتب والجنود المراقبون للقصر حين رأوا الباب يفتح والجارية فجر

تنزل إلى النهر حاملة جرة كبيرة، ثم ملأتها واستدعت الحارس ليحملها معها، أخذ ابن الكاتب زمزم واتجهوا جهة باب السقاية بينما تسلل أصحابهم للجهة الأخرى من النهر وعندما اقترب الحارس من الجسر انقض عليه ابن الكاتب وزمزم وقتلاه، وفي نفس الوقت هاجمت الفرقة الأخرى جنديين على الضفة المقابلة وأسرعوا ليلحقوا بابن الكاتب وصاحبه، على الباب وقفت الجارية فجر تشير إليهم بالدخول فتسللوا خلفها عبر الباب المفتوح وصعدوا سلم بناية العبيد، ثم طلبوا من فجر أن تدلهم على طريق السطح فأشارت إليهم، وأعطتهم مفتاح باب السطح والذي كانت قد نجحت في سرقته من غرفة الأمير المخمور، فتسلل الرماة إلى السطح وفتحوا الباب بحذر شديد ثم اختبأوا دون أن يشعر بهم رماة السطح، وراقبوهم بعضًا من الوقت حتى رأوا منهم غفلة؛ فأخرجوا سهامهم في وقت واحد وضربوهم بها فقتلوهم بضربة واحدة، ثم أخرج زمزم بوقًا كبيرًا كان قد علقه في ظهره وأطلق صافرة شقت عنان السماء وانطلقت في سكون الليل فانخلعت لها قلوب السامعين واستيقظ من شدتها عيون النائمين، وكانت تلك هي الإشارة.

كان أبو حمزة يرابط بجيشه حول تيروال بعيدًا عن مدى رؤية الحراس فلما سمع الإشارة انطلقت جحافله كالسيل الجعاف(١)، واجتاحت المدينة قاصدة القلعة.

كان الوليد نائمًا إلى جوار سليمى حين سمعا صوت البوق فاستيقظا مفزوعين وقد انخلع قلباهما من شدة الصوت، ثم نهض الوليد من فراشه محاولًا استجماع قوة جسده وعقله اللتين أنهكهما السهر والخمر في تلك الليلة، وفي خروجه قابلته أمه وأخبرته بما كان من دخول ابن الكاتب وجنوده القصر وصعودهم للسطح بمساعدة رقية.
كان رماة ابن الكاتب قد سيطروا على سطح القصر واستولوا على المجانيق والقاذفات فوق القصر، وصوبوها تجاه الجبل فانزعج الرماة فوق الجبل لما رأوا

(١) السيل الجعاف: الجارف.

السهام مصوبة عليهم من جهة القصر وترددوا كثيرًا في ضرب القصر وسادت بينهم حالة من الاضطراب والهرج ثم بدأوا يبادلونهم الرمي.
أسرع الوليد يجمع جنود القصر ثم صعد بهم إلى السطح يريد استعادة السيطرة عليه، لكن جنود ابن الكاتب كانوا يسيطرون على السطح تمامًا ففشل جنود الوليد في اقتحامه، قال الوليد:
- سأجبر هذا الوغد على النزول وترك مكانه بالحيلة.
وكانت فرقة الرماة الأخرى قد خرجت من مخابئها حين سمعت صوت البوق وخرج معهم أهل المدينة كل يساعد على قدر همته فانقضوا على الجبل واشتبكوا مع الرماة هناك، الذين استسلموا لما رأوا أنفسهم بين سهام من فوقهم وسيوف من تحت أرجلهم.
لم يبق من نقاط القوة الثلاث سوى أبراج القلعة والتي ظلت صامدة ترد بقوة على رماة القصر والجبل وكادت تحرز نصرًا لولا قدوم جيش أبي حمزة الذي شق طرقات المدينة كالإعصار يقتل كل من يعترضه من جند الوليد حتى بلغ أسوار القلعة. واشتبكوا مع الجنود في معركة طاحنة ساعدهم فيها رماة الجبل، والذين صوبوا مجانيقهم ناحية القلعة وأخذوا يدكون أسوارها حتى هدموا جزءًا يسمح لجيش أبي حمزة بالدخول فدخلوا وحمي الوطيس واشتدت المعركة التي مالت كفتها كثيرًا لأبي حمزة فلما رأى ذلك مضى بفرقة من جيشة قاصدًا القصر ليلحق بصاحبيه.
أمر عباد جنوده في القلعة بالتقهقر إلى القصر ومحاولة استعادة السيطرة على السطح، فعادوا إلى القصر وجرت معركة أخرى في ساحة القصر، بينما نزل ابن يحيى مسرعًا ليقود فرقة حماية القصر في الأسفل واشتبك مع جنود أبي حمزة الذين تقدموا نحو القصر واشتد القتال.
اقتحم الوليد غرفة الأميرة وأخذ يجرها من شعرها ويقول:
- أتغدرين بي يا خائنة؟ والله لسوف أقتله أمامك.
أخذت تصرخ وتستغيث فلما سمع ابن الكاتب صراخها انطلق ونزل متجهًا إلى غرفتها، فكان جنود الوليد ينتظرونه، فدارت بينهم معركة طاحنة لحقه فيها

زمزم وبعض الجنود حتى نجحوا في القضاء عليهم وانطلق إلى غرفة الأميرة فوجد الوليد يجرها من شعرها ليتخذها درعًا يحمي به نفسه، فقال له:
- على رسلك يا وليد ولا تستقوِ على امرأة، فإن كنت لا محالة مقاتلًا فأنا حدياك(١).
قال الوليد بلهجة ساخرة:
- مرحبًا بالفاتح العظيم، والعاشق الناسك.
اشتبكا معا ودارت بينهما معركة حامية، وكان زمزم على الباب يشتبك مع جنود الوليد الذين جاءوا لإنقاذه.
وكان الوليد بارع في المبارزة ضليع في فنون الحرب، لكن ابن الكاتب تسلح بالعزيمة واستقوى بالحب واحتمى بالمشيئة، فقاتل كما لم يقاتل من قبل، كان يتذكر كل ما فعله الوليد من غدر وقتل وظلم فكان يقابله الضربة بالضربة، والطعنة بالطعنة،
قال الوليد:
- لن أمكنك مما تريد أيها القن(١)، ولسوف أجعل جنودي يطوفون برأسك في البلدان
- حكم الله أن الباطل دومًا إلى زوال وعلى الباغي تدور الدوائر، وقد شاء الله أن يأتي اليوم الذي تدفع فيه ثمن بغيك وغدرك، وإن مت أنا فخلفي أجادل(٢) ينتقمون لي ويكفون الناس شرك.
ضحك الوليد وقال:
- ها قد استنسر البغاث(٣)، أتدري بعد أن أقتلك سوف أقطع رؤوس أجادلك، ثم أتمكن من حبيبتك فأرتشف من رحيقها على شرف حبيبها القتيل.
كانت رقية في أحد أركان الغرفة لم تسعفاها قدماها على الوقوف فقبعت ترتجف خوفًا وينخلع قلبها مع كل ضربة يصوبها الوليد إلى حبيبها.
وكان القتال ما يزال يدور بينهما فاستغل ابن الكاتب سُكر الوليد وتأثير الخمر عليه فعمد إلى إجهاده بكثرة الحركة والدوران بين ركن وركن في الغرفة، حتى استغل لحظة زاغت فيها عين الوليد فباغته بطعنة خليس(٤) استقرت في قلبه،

(١)حدياك: مبارزك.

فجحظت عيناه وسالت الدماء من فيه وخار كما يخور الثور ثم لفظ أنفاسه الأخيرة، فأسرعت رقية إلى حضن ابن الكاتب وبكت بكاءً شديدًا ثم انتزعت خنجرًا من غمدٍ في وسط ابن الكاتب، ومالت على جثة الوليد وأخذت تطعنه طعنة وتتبعها بأخرى وهي تبكي وتنتحب والدماء تسيل على يديها وتتطاير على وجهها واستمرت تطعن فيه حتى

أشفق عليها ابن الكاتب فحملها من عليه وخلع درعه واحتضنها وأخذ يهدئ من روعها ويهدهدها، ويقول لها:

- أرأيت يا حبيبتي لقد أوفيت وعدي وجئت إليك لآخذك من بين أنياب الكلاب .

- كانت آمالي أوشكت أن تنقطع يا محمد، وأنت اليوم أحييتها من جديد.

- وإني أشهد أني اليوم قد كتبت لي الحياة يا حبيبتي، فحياتي لا يبدأ تقويمها بيوم مولدي وإنما بيوم هجرتي إلى حضنك، وإني اليوم استقر فيه فأشهد أني اليوم ولدت، فبعد قليل يتحقق النصر ونبدأ عهدًا جديدًا بلا غدر ولا قتل ولا دم، عهد يملؤه الحب والوفاء.

- أتمنى ذلك يا محمد، فقد تعبت من الغدر والحرب، وأريد أن أحيا ما تبقى من عمري في سلام.

- سيحدث ذلك يا حبيبتي، ألا تسمعين جهجهة(١) أبطالنا؟ فما هي إلا لحظات وتنتهي المعركة، فسوف أنادي في الناس الآن أن الوليد قتل، فحين يسمع جنوده ذلك سيرتعدون ويهربون ويجهز رجالنا عليهم فيتحقق النصر بإذن الله، وينتهي عصر الحروب والدماء.

---

(١) القن: المملوك الذي كان أبوه مملوكًا لمواليه.

(٢) أجادل: صقور ومفردها أجدل.

(٣) استنسر البغاث: أي زعم الضعيف أنه قوي واستنسر أي صار نسرًا والبغاث هو طائر صغير الحجم بطيء الطيران.

(٤) طعنة خليس: هي التي يختلسها الطاعن.

ثم خرج إلى الشرفة، نظر إلى ساحة القصر فرأى القتال يحتدم فأخذ ينادي:
- لقد قتل الوليد، لقد قتل الوليد.
ثم حمل جثة الوليد وألقاها من الشرفة فسقطت على الأرض أمام جنوده، فلما رأوها اضطربوا ودب الخوف فيهم وتفرقت جموعهم، وأخذوا يلقون كرات النار على شرفة القصر ويفرون.
سمعت صفية موت الوليد؛ فجن جنونها وجاءت تهرول نحو غرفة رقية واستغلت انشغال الجنود في القتال على الباب فتسللت ودخلت تمسك خنجرًا ورأتها أم زمزم فجاءت تجري خلفها لتلحق بها، لكنها كانت قد أسرعت نحو ابن الكاتب الذي يقف في الشرفة وينادي بمقتل الوليد، فطعنته من ظهره طعنة نفذت من بين ضلوعه فسقط أرضًا، وصرخت رقية صرخة كانت أقوى من بوق زمزم، واشتبكت مع صفية في قتال عنيف وساعدتها أم زمزم، أخذوا يضربونها على رأسها بدرع ابن الكاتب حتى سال الدم من رأسها وهي تقاوم وتشتبك معهم، ثم ضربوها ضربة أسقطتها أرضًا، أخذت رقية تستنهض ابن الكاتب وتترجاه ألا يموت، كان يلفظ أنفاسه بصعوبه، حاولت أن تنزع الخنجر من ظهره لكنه نهاها عن ذلك وقال بصوت متقطع:
- اتركيه ولا تنزعيه، فإن نزعته دخل الهواء إلى صدري، فملأ رئتاي فتنطبق وأموت في الحال، أما لو تركته ربما أعيش بعض الوقت لحين تمتلئ رئتاي بالدماء.
- بالله عليك لا تمت يا ابن الكاتب، عش من أجلي أرجوك، لقد عشت على أمل هذا اليوم، أرجوك يا محمد، قل لي ماذا أفعل لأنقذك، فأنت طبيب بارع وتعلم كيف تطبب الجرحى، أنسيت يوم أنقذتني؟ دعني أردها لك، أتمنعني من الموت ثم تسبقني إليه، بالله عليك قل لي ماذا أفعل؟
- لا شيء يا حبيبتي لقد سبق السيف العزل(٢) ودنا الأجل، وأصبحت دقات القلب محدودة، وأنفاس الصدر معدودة، وإني الآن أحيا لا أموت، فالموت كنت أراه في كل ليلة كانت تمر ولا أعرف عنك خبرًا، ولا أجد لنفسي عذرًا حين كنت أقف عاجزًا عن خلاصك من المجرمين.

---

(١) جهجهة الأبطال: صياحهم في المعركة.

(٢) سبق السيف العزل: مثل يضرب للشيء جاء في غير أوانه.

أخذ يلفظ أنفاسه بصعوبة وأكمل قائلًا:
- الموت عرفته في بعدك عني، أما الآن فإني أحيا لا أموت، لقد اطمأن قلبي عليك وعشت حتى رأيتك نجوت من غدر الغادرين، وطوبى للموت لو كان بين ذراعيك، وهنيئًا للعين لو كانت آخر ما تراه أنت، كفكفي دمعك يا رقية وكفاك حزنًاوألمًا، أكملي حياتك ملكة للبلاد وصية على الملك الصغير، وارعي إخوتك وابن عمك، فتلك وصية عمك الملك لي، ولا تحرمي نفسك متعة من متع الدنيا، ولا تترهبني من بعدي، واهنأي بالحياة ولتهنأ الحياة بك.
- لا أريد إلا أنت يا حبيبي، لا تفارقني فما عاد قلبي يطيق فراقًا، بالأمس افترقنا لكني كنت أعيش على أمل اللقاء، أما اليوم فكيف أعيش يا محمد، محمد، محمد.
أخذت تهز كتفيه وتنادي عليه لتستنهضه ولكنه فارق الحياة، بذل نفسه من أجل حبها فكافأه الله بالموت بين ذراعيها، وفى بوعده ولم يتركها بين مخالب الذئاب، نفذ وصية الملك وأعاد المُلك الضائع، أخذت تبكي وتنتحب، فقد فارقها الأمل الذي تحملت الألم من أجله وكانت أم زمزم إلى جوارها تربت على كتفها وتحتضنها وتصبرها، بينما كرات النار التي أطلقها جنود القلعة وجنود القصر الفارين تضرب الغرفة، فانتبهت رقية أخيرًا للنار المشتعلة، ثم جذبتها أم زمزم من يدها تساعدها على النهوض وهي تقول:
- كفاك يا سيدتي فالنار تشتعل في كل مكان والدخان يحبس الأنفاس الغرفة.
فما أن همت بالنهوض حتى جاء زمزم ينادي مبشرًا صاحبه بالنصر:
- أبشر يا ابن الكاتب فقد جزحت الظباء(١)
لكنه وقف شاخصًا لما رآه مقتولًا فجن جنونه، لكنه رأى النار تقترب منه فحمله وخرج مع أمه ورقية.
كانت صفية ما زالت تلفظ أنفاسها فتعلقت بثوب رقية تبغي النجاة من النار فركلتها رقية بقدمها في وجهها وخرجت وأوصدت الباب من الخارج، حتى سُمعت صرخات صفية تحترق بالداخل وتستغيث.
في ساحة القصر كان أبو حمزة قد تقدم كثيرًا واستغل تقهقر جنود القصر بعد

(١) جزحت الظباء: فرت ودخلت مآويها والظباء جمع ظبي.

موت الوليد وسيطر على القصر وأسر الكثير من الجنود وأسر معهم قائدهم ابن يحيى.

خارج الغرفة جلس زمزم يبكي صاحبه ويمسح على رأسه ويقول:

- أجبني يا ابن الكاتب، لا تفارقني يا صاحبي، أني أحس نبضك، ما زال قلبك يدق أليس كذلك؟ أرجوك انهض لتشاهد النصر بنفسك لقد انتصرنا يا محمد، لولاك ما تحقق النصر يا صديقي، انهض لتجني ثمرة ما زرعت، أتذكر يوم كنا نتسامر ليلًا وأقسمت أن تنتقم للملك والأميرة، انهض لترى أنك أوفيت الوعد ولم تحنث(١) بيمينك.

أخذ يبكي ويصرخ كالمجنون، حتى أشفقت أم زمزم على ولدها فأخذت بيده واحتضنته واحتضنت رقية، رأت رقية وأم زمزم الجارية فجر تهرول قادمة إليهما من غرفتها بعد أن هدأ القتال أمام غرفة الأميرة فارتمت في أحضانهما ومضوا جميعًا.

بدأ صوت المعمعة يتلاشى وحدة القتال تخف وبدأ السكون يطغى على أرجاء المكان إلا قليل من أصوات صهيل بعض الخيول وصليل بعض السيوف وحسيس(٢) النيران وتأوهات الجرحى.

دخل أبو حمزة القصر ثم صعد ليطمئن على صاحبيه فقابله زمزم يحمل جثة ابن الكاتب وإلى جانبه أمه ورقية وخلفهم الجارية فجر ينتحبون فصعق لما رأى ذلك ثم مال عليه وذرف دمعة تحجرت في عينيه وقال:

- هنيئًا لك بالحسنيين يا ابن الكاتب.

ثم أمر الجنود بحمله إلى الخارج وأخذ يربت على زمزم ويصبره، قالت رقية بصوت ضعيف:

- يا أبا حمزة إن نساء القصر وأطفاله ما زالوا بالداخل، وهم بخير فأرسل جنودك ليخرجوهم قبل اضطرام النار في القصر، وجهز الرواحل سنعود الآن إلى السهلة.

في ساحة القصر كان جنود أبي حمزة قد انتشروا في أرجاء القصر وكبلوا الأسرى

---

(١) تحنث: تخالف قسمك ولا تبر بقسمك.

(٢) حسيس: صوت النيران الهادئة.

منتظرين أوامر سيدهم، فأمرهم أبو حمزة بالدخول إلى القصر وإخراج أهله وجمع الغنائم منه قبل احتراقها، ثم وقف أمام صف الأسرى، ومشي بينهم ليرى جنوده بالأمس وأسراه اليوم ثم قال:

- أعلم أنه كان فيكم أناس غُلبوا على أمرهم، لا ذنب لهم كانوا يؤمرون فيطيعون ، وفيكم أيضًا جبارين كانوا أيادٍ للظالمين يبطشون بها وسياطًا يجلدون بها الناس، استحفوا أموال الناس واستحلوا أعراضهم وديارهم وإنا لن نظلم منكم أحدًا، وسنترك الحكم فيكم للناس.

ثم نادى على جنوده قائلًا:

- سوقوهم مقيدين بأغلالهم، سنأخذهم معنا إلى سجن السهلة لنحسم مصيرهم فيما بعد

انتبه أبو حمزة وجنوده إلى صوت الأميرة تنادي:

- انتظروا أيها الجنود.

كانت تستجمع قوتها وتكفكف دمعها وتمر أمام صف الأسرى فتنظر في وجوههم ثم قالت:

- خذوهم جميعًا واتركوا هذا، وهذا، وتلك.

- لِم أيتها الأميرة؟

- لا يستحقون شرف أن تطأ أقدامهم أرض السهلة ثانية.

- نسجنهم هنا؟

- السجن راحة لهم.

- ماذا نفعل بهم؟

- نقتلهم.

أهطع(٢) إليها ابن يحيى وقال مستعطفًا:

- يا بنيتي، وماذا جنيت أنا حتى أقتل، فالتدبير كان لعمتك والتنفيذ كان لابن عمتك.

---

(١) استحفوا أموال الناس: أتوا عليها.

(٢) أهطع: نظر في ذل وانكسار

- في الجريرة تشترك العشيرة يا ابن يحيى، وكفاك ذنب أنك لم تمتثل لقول الله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوًا لكم فاحذروهم".
- وهل مثلي يستحق القتل يا ابنتي؟
- لست ابنتك يا ابن يحيى، ومثلك يستحق ثلاث قتلات لا قتلة واحدة، قتلة على خيانتك للملك الذي ائتمنك على ملكه وجعلك وزيرًا له فغدرت به، والخائن في بلادنا عقابه الشنق.
وقتلة ثانية على مشاركتك في قتل أبي وفي ديننا القاتل يقتل بمثل ما قتل، فعقابك القتل بالسيف، أما الثالثة وهي أنك كنت غضًا(١) ضعيفًا تسيّرك امرأة كيفما تشاء، لم تكن يومًا رجلًا ولا صاحب رأي، مثلك عند العرب مثل الفاحش الفاجر عقاب له الرمي من أعالي الجبال، فاختر أي قتلة تريد وعن أي ذنب تعاقب.
أخذ يبكي ويتوسل لها فلم تعره اهتمامًا وأكملت سيرها ووقفت أمام عباد فقال:
- يا سيدتي وما ذنبي أنا؟ فما كنت إلا جنديًا أتلقى الأمر فأنفذه.
- كان هو فرعون وكنت أنت من جنوده والله لم يعف جنود فرعون من الخطأ، فقال تعالى: "إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين"، وأنت كنت يدًا للظالم يبطش بها ويظلم الناس بغير الحق، وعند الأطباء إذا فسدت اليد وجب بترها، لذا فقتلك اتقاء لمفسدتك.
نظر إليها يستجدي منها العفو والشفقة فأشاحت وجهها عنه وتوجهت إلى سليمى،
فقالت سليمى بدموع تهتن(٢) من عينيها:
- يا سيدتي كنت مغلوبة على أمري ولم أقو على عصيان الوليد.
- ما كان الوليد ليجرؤ على أن يطلب منك خيانتي؛ لولا رأى منك ميلًا وقبولًا، وإلا فلِم اختارك أنت ولم يطلب من سواك.
- كنت ضعيفة أمامه يا سيدتي فكنت أحبه حبًا شديدًا.

---

(١) غضًا: لينًا.
(٢) تهتن: تنزل بغزارة.

- الحب لا يبرر الخطأ ولا يدفع للخطيئة، الحب الذي لا ينقي القلب ويهذب النفس لا يكون حبًا، وأنت حبك قتل أناسًا وظلم آخرين.
بكت سليمى وانتحبت وتوسلت ثم مالت على قدم الأميرة تريد أن تقبلها فأمسكتها من شعرها ورفعتها إلى أعلى وقالت:
- الذل يجري فيك مجرى الدم في العروق، حتى لحظة موتك ترجعين إلى محتدك(١)، عشت ذليلة للوليد فموتي إن شئت عزيزة.
ثم أشاحت وجهها عنهم وأدبرت و أكملت سيرها فأخذوا يتوسلون إليها ويبكون:
- سيدتي نرجوك الصفح يا سيدتي.
فلم تأبه لهم ومضت مدبرة عنهم وهي تقول:
- ما عاد يجدي، فقد قطعت جهيزة قول كل خطيب(٢).
- اشنقوهم.
كان جنود أبي حمزة قد جاءوا بنساء القصر وأطفاله، وجلبوا ما استطاعوا حمله من مغانم القصر، فاقترب منها أبو حمزة وقال:
- نساء القصر وأطفاله بخير أيتها الأميرة، وقد جهزنا لهم الرواحل بالخارج.
- حسنًا هيا سنرحل الآن، ومر جنودك يحملوا جثة ابن الكاتب معنا.
كان الصبح قد أشرق والجوناء(٣) قد حميت حين سارت في الساحة متجهة إلى مخرج القصر، وقبل الخروج أدارت وجهها لتلقي نظرة أخيرة على قصر الموت هذا، أدارت وجهها المشرق الجميل الذي لم تطفئ أدخنة النيران ولا سوادها وضاءته وجماله،أخذ الهواء يتلاعب بخصلات شعرها الذي لم يفقد سحره وجماله رغم تهدله وفقده بعضًا من تناسقه، فتطاير يغطي قسمات

---

(١) محتدك: أصلك.

(٢) قطعت جهيزة قول كل خطيب: مثل يضرب للرأي يحسم الأمر، أصله أن قومًا اجتمعوا يتشاورون في صلح بين قبيلتين أحدهما قتل من الأخرى قتيلًا، يحاولون إقناعهم بقبول الدية، وبينما هم كذلك إذ جاءت أمة اسمها جهيزة فَقَالت: إن القاتل قد ظفر به بعض أولياء المقتول وقتلوه! فَقَالوا عند ذلك: "قَطَعَتْ جهِيزةُ قول كل خطيب".

وجهها الجميل وعينها السبلاء(٤)، نظرت بعين كحلاء قد سال منها الجلاء(٥) إلى القصر وأمامه جثث الخائنين معلقة، فشهقت شهقة عميقة وزفرت زفرت حارة أخرجت بها ما تبقى بداخلها من هواء هذا القصر الكئيب، كأنها أرادت أن تخرج من بين جوانحها ذكرياتها المؤلمة في ذلك المكان الموحش.

ما أن خرجت من باب القصر وركبت هودجها حتى رأت الناس تجتمع بالخارج تهتف باسمها وباسم الملك الصغير ويهتفون لأبي حمزة، فقد تخلصوا من أيام الظلم والهوان،

سارت الرواحل وفيها الأميرة وأم زمزم وفجر وزوجة أبيها وإخوتها وأخذت معها زوجات الوليد وأطفاله، ثم سارت والناس يتبعونها حتى توقفت في وسط المدينة، وسألت عن قبر أبيها فدلوها عليه، فذهبت إليه وبكت بكاءً مريرًا حتى روت ثرى القبر بدموعها وأخذت تكلم أباها كأنه يسمعها وتحكي له كيف انتصرت له وأخذت بثأره، حاولت النساء تهدئتها فهدأت وقامت معهن، ثم أكملوا سيرهم وفي الخلف كان أبو حمزة وجنوده يقودون الأسرى والغنائم والناس يتبعونه بالهتاف والتهليل فبشرهم أن الغنائم ستصيبهم جميعًا وأكمل سيره متتبعًا الأميرة.

مضى الركب حتى بلغ السهلة، فكان أهلها في استقبال الجيش المنتصر بالهتاف أيضًا، دخلت الأميرة القصر فقابلها عبد الله يجري عليها كالمجنون:

- أختاه كم أشتاق إليك.

فاحتضنته وبكت قائلة:

- كيف حالك يا أخي؟

- الحمد لله بخير يا رقية، اشتاقت إليك جدران القصر وجفت الزهور حزنًا على فراقك وافتقدتك مجالس العلم.

مسحت على رأسه وقالت:

- أما زلت تذكر يا عبد الله؟

---

(٣) الجوناء: الشمس.

(٤) السبلاء: عين سبلاء أي طويلة الأهداب.

(٥) الجلاء: الكحل.

- ما انقطع ذكرك مذ فارقتنا، فلم يكف ابن الكاتب عن الحديث عنك وتقصي أخبارك، وقد كنت على يقين من أنه سيجلب النصر ويعيدك إلى دارك، أتعلمين؟ لقد اكتشفت فيه أشياء أخرى، أشياء أخرى غير أنه كاتب وطبيب ومعلم، إنه فارس بارع وقائد مراوغ، يجب أن نكرمه يا رقية فلولاه ما تحقق النصر، أين هو؟

في تلك اللحظة كان أبو حمزة يدخل بركبه من باب القصر فرآه عبد الله فأقبل على الركب يلتمس ابن الكاتب بينهم فأخذ يبحث عنه ويقول:

- أين محمد؟

لم يجبه أحد، فأخذ يقلب في وجوه الحاضرين يبحث عنه حتى رآه محمولًا على فرس غارقًا في دمه فانكب يبكي، فبكى لبكائه كل من رأى الأمر وجعل يضرب في الأرض ويقول:

- لِم ترحل الآن يا محمد؟ ألم يوصك أبي بنا؟ أهذا تنفيذ الوصية؟ تتركنا وترحل، تخلف وعد الملك وتنقض عهدك معي بدراسة مائة كتاب كل عام.

ذهبت إليه رقية وهي تبكي وأخذت تشده من يديه ودخلت به إلى داخل القصر

بعد وقت يسير خرجت من باب القصر وقد كفكفت دمعها وأظهرت الجلد، وكان الجنود ما يزالون واقفين منتظرين أوامرها، فتقدم نحوها أبو حمزة وقال:

- بم تأمرنا الأميرة؟

- احفروا لابن الكاتب قبرًا بجانب قبر الملك، ثم تصرف في أمر الأسرى كما تشاء، وأمر جنودك بدفن القتلى وأغدق على ذويهم العطاء، واجعل لزوجة الوليد وأبنائه بيتًا يسكنون فيه واجعل لهم راتبًا يعيشون عليه، أيها القائد إن لي طلبًا آخر سأمتن لك إن أنجزته لي.

- تفضلي أيتها الأميرة.

- أريد أن يؤتى برفات أبي فيدفن هنا في القصر إلى جانب عمي وابن الكاتب.

- حسنًا لك ما تريدي يا مولاتي.

اجتمع الناس وأخذوا يهتفون وينادون بحياة الأميرة ويهتفون للقائد أبي حمزة، ثم بدأت تخطب فيهم:

"يا أهل شنتمرية، تعلمون أن بني الرزين مذ جاءوا فاتحين وقد عمدوا إلى لم شملكم وحماية أرضكم وحقن دمائكم وحفظ أموالكم، وكان هذا درب أبينا الملك الحاكم بن هذيل ومن قبله جدنا هذيل بن عبد الملك - رحمهم الله جميعًا -، لكن خرج عليكم أناس من بينكم كندوا النعمة(١)، قسموا أرضكم وفرقوا جمعكم، لاح لهم زهو الملك ولمعت في أعينهم درر التيجان، ظلموا وتجبروا وقتلوا وغدروا، لكن الله الحكم العدل جعلكم حماة للأرض وأسبابًا للنصر، فخرج من ظهوركم رجال مثل الحافظ بن هذيل

ومحمد بن الفتح بن هشام وأبو العباس ابن جهور - رحمهم الله - وأبو حمزة المراكشي - أطال الله عمره - والذين بذلوا أرواحهم ولم يهابوا الحتوف(١) ولم تثقل عزائمهم السيوف، بل أقبلوا على المنايا بقلوب أسود في صدور رجال فردوا المظالم وجلبوا المغانم، ووأدوا الفسوق وأعادوا الحقوق، فجمعوا الشمل بالشمل وضموا الرمل للرمل فعادت للبلاد وحدتها وللنفوس عزتها، وإنا اليوم قد جمعنا البلاد تحت راية بني هذيل، وإني أمامكم رقية بنت الحافظ بن هذيل كبرى أبناء القصر ووريثة المُلك، وقد جرت عادات العرب ألا يملّكون النساء ويعلم الله أني زاهدة فيه، فأمامكم أحد أمرين، إما أن يصير عبد الله ولد الملك الحاكم- رحمه الله- ملكًا للبلاد تُعين عليه الوصاية لحين يبلغ أشده، وإما الأمر الثاني فهو أن تولوا أنتم من تختارون ونعتزل نحن بنو هذيل الحكم.

وهنا هتف الجميع باسم عبد الله وعلا الهتاف.

فأشارت إليهم وأكملت:

- إذن قد اخترتم، يصبح عبد الله ملكًا للبلاد، ويصير أبو حمزة وزيرًا له ووالية على تيروال، وتختارون من بينكم حكماء راشدين يكونوا أوصياء على عبد الله ومستشارين لأبي حمزة لحين بلوغ الملك رشده والله غالب على أمره.

أنهت خطابها ثم دخلت إلى القصر واستدعت زمزم وأمه والجارية فجر وقالت:

---

(١) كندوا النعمة: جحدوها.

(١) الحتوف: جمع الحتف وهو الموت.

- أما أنت يا زمزم فستصير أميرًا لحراسة القصر كي تظل إلى جواري أنت وأم زمزم، وقد اخترت فجر لتكون زوجة لك، فالطيبات للطيبين.
تهلل وجه زمزم وأمه وشكرا للأميرة، وأبدت فجر خجلًا واحمر وجهها فضحكت الأميرة وباركت الزواج.
كانت أول ليلة لها في القصر بدون أحبائها، فشق عليها النوم فقامت تدور في أرجاء القصر وتسير في طرقاته وأخذت تتحسس بيديها جدران القصر الذي أحبته وألفته ونشأت فيه، ثم أخذت تقلب نظرها في البستان وعند النهر وفي مواضع التقائها بحبيبها، ذهبت إلى غرفة أبيها تشم رائحته فيها، وإلى غرفة عمها الملك تستحضر صورته في مخيلتها، ثم قادتها قدماها إلى غرفة الكتب ففتحتها ببطء، ثم دخلت لتجد الكتب والقراطيس وقارورة المداد وريشة الكتابة، كل في مكانه فتخيلت كأنه جالس يكتب إليها رسائل الحب والشوق، ثم نظرت بعينها للجدار والتقطت القنديل المعلق في أحد الجدران وأمسكته محاولة أن تقرأ المكتوب، فرأت تلك الكلمات التي كتبها من قبل بدمائه.

بدمي كتبت على قوائم شرفتي أني أحبك يا قرينة ذاتي

فجرحت جرحًا في يدها وكتبت تحت هذا البيت

ما زلت تحيا في الفؤاد وفي الحشا أشكو فتسمع في النعيم شكاتي
قطرات نزفـيى تشتهيك وتبتغـــي لو كان حكمي لافتدك حيـــاتي

ثم جلست على كرسيه المقابل لمنضدته التي كان يكتب عليها ونظرت إلى محبرته وأوراقه، فلفت انتباهها ورقة مكتوب فيها بعض أبيات من الشعر فالتقطتها وبدأت تقرأ آخر ما كتبه فيها

وا لوعتاه حبيبتي إذ يكتـــوي قلبي وتأبين اللقاء الآتـــــي
فالكون دونك قد توالى نزعـــه وبك الحياة تدب في الأمواتِ
إن الرعود وإن تعـالى صوتـها قد فاق صوت هزيمها أناتي
إن السماء وإن تهامـر قطـــرها فبمقلتي بحرٌ من العـــبراتِ
والبيد إذ تكوي الرمال شموسها فبنار شوقي تكتوي جنباتي
قد كنت قبلك يا حياتي ضائعًا فوجدت في قربي إليك شتاتي

بدمي كتبت على قوائم شـــرفتي أني أحبـك يا قرينـــــة ذاتـــي
ونظمت فيك قصيدتي فتنافســت في وصف حبك أحرف الكلماتِ
فبنيت من قلبي مدينة عشـــقنا وجعـــلت منك أمـــيرة الملـكاتِ
وغدوت في تلك المدينة فارســًـــا وغدوتِ أنت حبـيـبـتـي مولاتي(١)

بكت بكاءً شديدًا وانهمرت الدموع من عينيها حتى سالت على الورقة التي في يدها وباتت ليلتها في تلك الغرفة.
كان أبو حمزة قد عاد إلى تيروال فاحتفى به الناس كثيرًا وأخذ يوزع الغنائم، ورد المظالم إلى أصحابها وأخرج من كان قد سُجن ظلمًا في عهد الوليد، ثم سجن فلول الوليد وجواسيسه وكبار التجار الذين كانوا يتحكمون في أقوات البسطاء وأعاد توزيع الجيوش على الحدود وراسل مجلس الوصاية في الشرق بكل ما هو جديد.
كان عبد الله واقفًا في شرفة القصر حين رآها في أحد أركان حديقة القصر جالسة أمام الضرائح الثلاثة، ضريح أبيها وعمها وابن الكاتب فنزل إليها وجلس إلى جوارها يبكيان أحبائهما ويذرفان الدموع لفراقهم، وكان عبد الله يحمل عصا أبيه وسيف عمه وكتاب ابن الكاتب، فجلس يقرأ عليها من الكتاب ما تعلمه في غيابها.

---

(١) هذه الأبيات من قصيدة لي بعنوان: "فتاتي"، ستصدر في ديواني القادم بإذن الله.

لقد استخدمت في تلك الرواية خيطًا رفيعًا من الواقع، فنسجت منه أحداثًا وأشخاصًا من الخيال، فمزجت الخيال بالواقع في ثوب مستوحى من أحداث وأشخاص، بعض منهم لا يعرفهم التاريخ والبعض الآخر لا يذكرهم التاريخ إلا قليلًا، فالرواية ليست مرجعًا تاريخيًا ولا مدونة لأحداث بعينها، ولكنها صورة من واقع عاشته الأندلس فترة من الزمن وما زالت تلك الصورة تتكرر في بلادنا إلى اليوم.

فصلة

للنشر و التوزيع

Fasla Publishing & Distribution

تواصل معنا :

01067000701

E-mail -: Fasla .Pub@Gmail .com

Facebook .Com/Fasla .Pub